الدكتور
محمود السيد شيخون
المدرس فى كلية اللغة العربية — جامعة الأزهر

الأسلوب الكنائى

نشأته - تطوّره - بلاغته

الطبعة الأولى
١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد إمبابى وأخيه محمد
٩ شارع الصنادقية بالأزهر
تليفون ٩٣١٢٩٦

الدكتور
محمود السيد شيخون
المدرس في كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الأسلوب الكنائي

نشأته - تطوره - بلاغته

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
٩ ش الصنادقية - الأزهر - القاهرة
تليفون ٩٣١٢٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

معنى كلمة « كناية »

الكناية في اللغة : مصدر كنى يكنى ، فيكون يائي اللام ، أو كنى يكنو ، فيكون واوى اللام (١) .

والمعنى العام لهذا المصطلح البلاغي : « هو أن تتكلم بشيء ، وتريد غيره (٢) » .

وقد وردت (٣) لها صور بهذا المعنى في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم « فكلمة « الرفث » لم يرد بها لفظها ، أو المعنى الظاهر لهذا اللفظ ، ومثلها لفظا « الغائط ، والملامسة » في قوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء » .

كما وردت في الحديث النبوي ألفاظ بهذا المعنى ، أي الدلالة على مستور خفي توحي به اللفظة ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لغلام أسود اسمه أنجشة كان يحدو بالنساء ركابهن في بعض أسفاره ، ويرتجز بنسيب الشعر والرجز وراءهن « رويدك سوقك بالقوارير » فكلمة « القوارير » لم يرد بها لفظها أو المعنى الظاهر لهذا اللفظ ، وإنما أريد بها « النساء » .

كما وردت لفظة الكناية ، أو ما يشتق منها بهذا المعنى في شعر الشعراء ، فقال أبو زياد الكلابي :

وإني لأكني عن قذور بغيرها وأعرب أحيانا بها فأصارح (٤)

وقاله ابن برى : وقد أرسلت في السر أن قد فضحتني

وقد بحت باسمي في النسيب وما تكني

---

(١) انظر لسان العرب مادة : كنى ، ٢٠ : ٩٨ ، والقاموس المحيط : ٤ : ٣٨٦ .

(٢) انظر مختار الصحاح مادة كنى ص ٩٦ . (٣) أي الكناية (٤) قذور : اسم امرأة .

مقدمة

الحمد لله . نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداعبده ورسوله ، صلى الله عليه . وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع سنته ، واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

أما بعـــد

فهذه دراسات حول الأسلوب الكنائى قد دفعنى إلى القيام بها أربعة أمور هى :

١ — الرغبة فى التعرف على تاريخ هذا الأسلوب ، كيف نشأ ؟ وكيف تطور ؟

٢ — معرفة الشخصيات التى أسهمت فى اكتشاف هذا الأسلوب ، وكشفت عن جماله ، وأبانت بلاغته .

٣ — الكشف عن البيئات التى عاش فيها هذا الأسلوب ، والمؤلفات التى احتوته .

٤ — الكشف عن أسراره البلاغية ، ولطائفه الأدبية .

وبعد طول معاشرة لكتب البلاغة والأدب قديمها ، وحديثها ، تمكنت من أن ألم بأطراف هذا الأسلوب المتشعبة ، وأن أزيح الستار عن بعض أسراره ولطائفه .

وقد كان سبيلى فى هذا البحث أننى سلكته فى تمهيد ، وخمسة فصول ، وخاتمة . أما التمهيد فقد كشفت فيه عن معنى كلمة « كناية »

وأما الفصول، فقد تحدثت في الفصل الأول منها عن الكناية منذ أن كانت صورة في خيال الشعراء، حتى صارت فنا من فنون البلاغة، مستعرضا في هذا الفصل جهود علماء البلاغة مناقشا آراءهم، كاشفا النقاب عن مناهجهم مسجلا ملاحظاتي على دراساتهم.

وتحدثت في الفصل الثاني عن الأسلوب الكنائي في العصر الحديث متتبعا بالبحث والدراسة علماء البلاغة الذين عنوا بهذا الأسلوب، مزيحا الستار عن جهودهم، مسجلا ملاحظاتي على دراساتهم.

وتحدثت في الفصل الثالث عن صور الأسلوب الكنائي التي تبلورت عنها جهود علماء البلاغة في نهاية المطاف، فتناولت هذه الصور بطريقة سهلة بعيدة عن الخلافات التي أطاحت ببهجتها ورونقها.

وفي الفصل الرابع تحدثت عن الأثر البلاغي للأسلوب الكنائي، فكشفت القناع عن بعض ما ينطوي عليه هذا الأسلوب من الأسرار البلاغية، واللطائف الأدبية.

وفي الفصل الخامس والأخير تحدثت عن الأسلوب الكنائي في القرآن الكريم، فأمطت اللثام عن خصائصه التي كانت السر في عظمته، والسبب في جماله، وخلوده.

أما الخاتمة فقد أثبت فيها النتائج التي انتهيت إليها في بحثي هذا والله الكريم أسأل أن يجعل هذه الدراسات خالصة لوجهه الكريم، خادمة للغة القرآن العظيم، إنه سميع مجيب، وهو حسبي ونعم الوكيل؟

الدكتور
محمود السيد شيخون
الأستاذ المساعد في الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة.

الفصل الأول

الكناية فى القديم

لقد عرف القدماء من الشعراء الكناية صورة فى خيالهم، توضح الفكرة، وتزين الأسلوب، ولم يعرفوها لونا بلاغيا محددا واضح المعالم بين السمات.

فكنى امرؤ القيس بالبيضة عن المرأة فى قوله:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل

وكنى النابغة الذبيانى عن طول العنق وتمام الخلق بقوله:

إذا ارتعشت خاف الجبان رعاثها ... ومن يتعلق حيث علق يفرق (١)

وكنى عنترة العبسى بالشاة عن جاريته فى قوله:

ياشاة ما قنص لمن حلت له ... حرمت على وليتها لم تحرم

وكنى أوس بن حجر عن الحرب بقوله:

حتى يلف نخيلهم، وبيوتهم ... لهب كناصية الحصان الأشقر

وكنى زهير عن طول عنق الفرس وقوائمه بقوله:

وملجمنا ما إن ينال قذاله ... ولا قدماه الأرض إلا أنامله (٢)

وكنى الأعشى عن رقة الخصر وتمام الخلق بقوله:

---

(١) ارتعشت: ابست الرعاث وهو القرط

(٢) ملجمنا: يريد الذى يلجم خيلهم

صفر الوشاح ، وملء الدرع خرعبة إذا تأتى يكاد الخصر ينخزل (١)

وسار الإسلاميون من الشعراء فى نفس الطريق التى سار فيها القدماء إلا أنهم أكثروا من الكناية ، وتأثروا بصورتها فى القرآن الكريم .

الكناية والدراسات البيانية

إن أول من تكلم عن الكناية كلون بلاغى - فيما أعلم - هو أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٧ ه وقد فهم منها أنها كل ما فهم من الكلام ومن السياق ، من غير أن يذكر اسمه مصرحا فى العبارة (٢) . ثم كشف النقاب عن دلالة الكناية على معناها ، وبين أن هذه الدلالة عقلية ، وليست لغوية ، أو وضعية وفى هذا يقول : « وهذا اللفظ فى العبارة لم يوضع فى الأصل عند أصحاب اللغة للدلالة على هذا المعنى ، وإنما فهمت تلك الدلالة من سياق الكلام بشىء من الروية وإعمال العقل (٣) » .

ثم أورد لها شواهد كثيرة منها قوله تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة » ثم وضح الكناية فى الآية الكريمة بقوله : « إنه رجوع من المخاطبة إلى الكناية ، والعرب تفعل ذلك ، ومنها قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد ، وإياك نستعين » ومنها قوله تعالى : « كل من عليها » كناية عن الأرض ، وقوله تعالى : « حتى توارت بالحجاب » كناية عن الشمس .

وذكر من شواهدها أيضا قول النابغة الذبيانى :

يادارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد :

وإن من يتأمل هذه الشواهد التى أوردها أبو عبيدة واستشهد بها على

---

(١) صفر الوشاح : ضخمة - الخرعبة : الرخصة اللينة الحسنة الخلق - تأتى : ترفق أو تتهيأ للقيام - ينخزل : ينثنى أو ينقطع .

(٢) مجاز القرآن لأبى عبيدة ص ١٣٦ (٣) المصدر السابق ص ١٣٦

الكناية كما يراها يدرك أن بعضها يطلق على الكناية فى اصطلاح المتأخرين من علماء البلاغة ، وبعضها يطلق على مايسمى عندهم بالالتفات ، ومن هنا يتضح لنا أن مفهوم الكناية عند أبى عبيدة عام فهو ستر المعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصلى .

الجاحظ والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد أبى عبيدة « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ﻫ » فأشار إلى أن الكناية ، والتعريض لايعملان فى العقول عمل الإفصاح والكشف ، ثم أورد للكناية بعض الشواهد منها قول أبى شريح بن الحارث الكندى : « الحدة كناية عن الجهل » ، وقول أبى عبيدة : « العارضة كناية عن البذاء (١) » ، ثم قال : « وإذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل (٢) »

ويلاحظ على الجاحظ أنه لم يضع تعريفا للكناية ، وإنما كان حديثه عنها أنه رأى صورة كلامية - كما هى عادته - استتر فيها اللفظ الأصلى الموضوع للمعنى ، وظهر لفظ غيره فأطلق عليها الكنايه والتعريض ، كما يلاحظ عليه أيضاً أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض والذى يفهم من شواهده التى أوردها للكناية وتعليقه عليها أنه لا يرى فرقا بينهما وأن الاسمين عنده مترادفان .

المبرد والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد الجاحظ « المبرد » المتوفى سنة ٢٨٥ ﻫ فى كتابه « الكامل » (٣) فقسمها إلى ثلاثة أقسام :-

(١) القسم الأول ما كان للتفخيم والتعظيم ومنه اشتقت الكنية ، وهو

---

(١) البذاء : كسحاب القدرة على الكلام (٢) البيان والتبين ص ٢٦٣

(٣) انظر الكامل ج٢ ص ٦

أن يعظم الرجل أن يدعى باسمه ، ووقعت فى الكلام على ضربين :

(ا) وقعت فى الصبى على جهة التفاؤل بأن يكون له ولد ، ويدعى بولده كناية عن اسمه .

(ب) وفى الكبير ينادى باسم ولده صيانة لاسمه .

٢ — القسم الثانى ما كان للتغطية والتعمية كقول ذى الرمة :

أحب المكان القفر من أجل أننى   به أتغنى باسمها غير معجم

٣ — القسم الثالث الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره .

كقوله تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » أى لفروجهم ، وقوله تعالى عن المسيح بن مريم وأمه : « كانا يأكلان الطعام » كناية عن قضاء الحاجة ، وقوله : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » كناية عن الجماع .

ويلاحظ على المبرد أنه لم يضع تعريفا للكناية ، ويلاحظ عليه أيضا أنه لم يفرق بينها وبين التعريض ، كما يلاحظ عليه أن تقسيمه الكناية إلى الأقسام الثلاثة السالفة الذكر ليس جيدا ، لأنه لا يرجع إلى تقسيم الجنس إلى أنواعه ، وإنما هذه الأقسام فى الحقيقة ضروب لما تؤديه الكناية من فائدة فى صناعة الكلام .

ابن المعتز والكناية :

ثم تحدث عن الكناية بعد المبرد « أمير المؤمنين عبد الله بن المعتز » المتوفى سنة ٢٩٦ ﻫ فى كتابه « البديع » فعقد لها فصلا خاصا تحت اسم « الكناية والتعريض » وأورد لها كثيرا من الشواهد الشعرية منها قول الشاعر فى حجام .

أبوك أب مازال للناس موجعا   لأعناقهم نقرا كما ينقر الصقر

إذا عوج الكتاب يوما سطورهم   فليس بمعوج له أبدا سطر

وابن المعتز يعد كلا من الكناية والتعريض فنا من محسنات الكلام .

ويلاحظ على ابن المعتز أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض ، بل كانت شواهدهما عنده مختلطة ولعله لايرى فرقاً بينهما شأنه فى ذلك شأن من سبقه من العلماء ، كما يلاحظ عليه أنه لم يضع تعريفاً لأحدهما . ومن هنا يتضح لنا أن ابن المعتز لم يقدم للكناية جديداً سوى الإكثار من الشواهد الشعرية .

قدامة بن جعفر والكناية .

ثم تحدث عن الكناية « قدامة بن جعفر » المتوفى سنة ٣٣٧ ﻫ تحت اسم « ائتلاف اللفظ والمعنى » وسماها « الإرداف » وعرفها بقوله : « أن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعانى ، فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له ، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع »(١) .

ثم ساق لها بعض الشواهد الشعرية منها قول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل　　　أبوها وإما عبد شمس وهاشم

وقدامه وإن لم يتكلم عن الكناية ، ولم يذكرها فى كتابه ، بل تكلم عن صورة قريبة منها سماها « الإرداف » إلا أن تعريفه لتلك الصورة البلاغية قريب جدا من مفهوم الكناية عند المتأخرين من علماء البلاغة ، وإن بعض الشواهد التى ساقها للإرداف تصلح أن تكون من شواهد الكناية عند المتأخرين من علماء البلاغة ، بل إن بعضهم جعلها من شواهد الكناية .

أبو هلال العسكرى والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد قدامة « أبو هلال العسكرى » المتوفى سنة ٣٩٥ﻫ فى كتابه « الصناعتين » تحت اسم « الكناية والتعريض » فعرفها بقوله : « وهى أن يكنى عن الشىء ويعرض به ، ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن

---

(١) نقد الشعر ص ٨٨ ، ٨٩ .

والتورية عن الشيء » (١) ثم استشهد لها من القرآن الكريم بقوله تعالى: « أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء » فالغائط كناية عن قضاء الحاجة وملامسة النساء كناية عن الجماع ، ومن الشعر بما قاله العنبري إذ بعث إلى قومه .

بصرة شوك ، وصرة رمل ، وحنظلة ، يريد جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرة الرمل والشوك ومن الشعر بقول الشاعر في حجام .

أبوك أب مازال للناس موجعا لأعناقهم نقرا كما ينقر الصقر
إذا عوج الكتاب يوما سطورهم فليس بعوج له أبدا سطر

ويلاحظ على أبي هلال في دراسته للكناية أنه ترسم خطا ابن المعتز ، فنقل تسميته كما هي ، ولم يفرق بين التعريض والكناية على نحو ما فعل ابن المعتز كما أنه استشهد ببعض شواهده .

ابن رشيق القيرواني والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد أبي هلال « ابن رشيق القيرواني » المتوفى سنة ٤٦٣ في كتابه « العمدة » تحت اسم التورية فقال (٢) : « وأما التورية في أشعار العرب ، فإنما هي كناية بشجرة أو بيضة أو ناقة أو مهرة أو ما شاء كل ذلك كقول المسيب بن علس :

دعا شجر الأرض داعيهم لينصره السدر والأثأب

فكنى بالشجر عن الناس حيث يقال في المنثور أيضا : جاء فلان بالشوك والشجر ، إذا جاء بجيش عظيم .

---

(١) الصناعتين ص١٨٥ (٢) العمدة ج١ ص ٢١٥

وقول عنترة : ياشاة ماقنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

وإنما ذكر امرأة أبيه ، وكان يهواها ، وقيل : بل كانت جاريته ، فلذلك حرمها على نفسه .

وكقول امرئ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

فكنى بالبيضة عن المرأة ، وقوله تعالى « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة » حيث كنى بالنعجة عن المرأة .

مما سبق يستبين لنا أن ابن رشيق يريد من الكناية معنى عاما هو ستر المعنى وإخفاؤه وراء لفظ غير لفظه .

ويؤخذ عليه أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض شأنه في ذلك شأن غيره من العلماء الذين سبقوه .

ومن هنا نستطيع أن نقول في اطمئنان إن ابن رشيق لم يقدم للأسلوب الكنائي جديدا يذكر فلقد ترسم خطا من سبقه من العلماء ، واختلف معهم في التسمية فقط .

ابن سنان الخفاجي والكناية .

ثم تحدث عن الكناية بعد ذلك « ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ في كتابه « سر الفصاحة » تحت « تأليف الكلام » وجريانه على العرف العربي الصحيح » فقال(١) : « ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح » .

ثم أورد لها كثيرا من الشواهد ، ووصف بعضها بالحسن دون تعليل ، ووصف البعض الآخر بالقبيح مبينا السبب في ذلك .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٩٢ .

فمن الشواهد التي أوردها ووصفها بالحسن والجودة قول امرىء القيس :

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أي إذلال

ثم كشف عن الكناية في البيت ووصفها بالحسن فقال : « لأنه كنى عن المباضعة بأحسن ما يكون من العبارة » .

وقول أبي الطيب :

تذمى ما ادعيت من ألم الشو ق إليها والشوق حيث النحول

ثم علق على البيت بقوله « لأنه كنى عن كذبها فيما أدعته من شوقها بأحسن كناية ومن شواهد التي أوردها للكناية ووصفها بالقبح والرداءة قول أبي الطيب :

إني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراو يلاتها

وقول الآخر :

تمطين من رطليك ما تعطى الأتف من الرغاب (١)

ثم بين الكناية في البيت بقوله : « يكنى بهذا عن امتلاء رجليها وليتهما »

وقول الرضي يرثي والدته :

كأن ارتكاضي في حشاك مسببا ركض الغليل عليك في أحشائي

ثم يعلق على البيت بقوله : « يعني أن ارتكاضه وهو جنين في بطنها كان سببا لارتكاض غليله في أحشائه لموتها » .

ثم يعلل قبح البيتين فيقول : « لأنك إذا تأملت هذين البيتين وجدتهما يجريان من بيت امرىء القيس مجرى الضد ، وذلك أن امرأ القيس عبر عما يجب أن يكنى عنه من المباضعة ، فكنى بأحسن كناية ، وهذان عبرا عما لا يجب أن يكنى عنه فأتيا بألفاظ يجب أن يكنى عنها (٢) » :

---

(١) الرغاب : الأرض اللينة الواسعة الدمثة (٢) سر الفصاحة ص ١٩٣ - ١٩٥

إن دراسة الخفاجي للكناية دراسة تمتاز بالعمق والتحليل ، فقد جعل الكناية أصلا من أصول الفصاحة ، وشرطا من شروط البلاغة ، وهذا اتجاه لم يسبقه إليه أحد من علماء البلاغة كما أنه لم يكتف بإرسال الشواهد ، وبيان موضع الكناية منها كما فعل غيره من العلماء الذين سبقوه ، بل تعدى هذا إلى النقد ، فكشف عن الحسن الجيد من الكناية ، وأماط اللثام عن القبيح الردىء منها ، مبينا السبب فى ذلك ، وهذا أيضا اتجاه قد انفرد به دون غيره ممن سبقه من العلماء ، وهذه الدراسة التحليلية النقدية الفريدة إن دلت على شىء فإنما تدل على ما يمتاز به الخفاجي من صفاء الذهن ، ورهافة الحس ، ودقة الشعور والخبرة الواسعة بأساليب اللغة والقدرة على تمييز جيد الكلام من رديئه ، وغثه من سمينه إلا أنه يؤخذ عليه أنه لم يضع تعريفا للكناية ، كما أنه لم يكشف عن فائدتها وأثرها فى الأسلوب ولم يفرق بينها وبين التعريض ، شأنه فى ذلك شأن من سبقه من العلماء .

عبد القاهر الجرجاني والكناية .

ثم تحدث عن الكناية «عبد القاهر الجرجانى» المتوفى سنة ٤٧١ هـ فأماط اللثام عن المراد بها فقال :

« والمراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومى به إليه ، ويجعله دليلا عليه ، كقولهم : هو طويل النجاد ، يريدون طويل القامة ، وكثير الرماد يعنون كثير القرى » .

والمتأمل فى هذا النص يدرك أن عبد القاهر أراد أن يبين معناها ، ويضع لها تعريفا ، ويكشف عن مغزاها فأبان أنها إرادة المعنى بغير لفظه الخاص به ، ولكن

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٢

بذكر معنى آخر من شأنه أن يردف المعنى المرادف الوجود ، وأن يكون إذ كان أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد ، وإذا كثر القرى كثر رماد القدر .

ثم وازن عبد القاهر بين الإفصاح والكناية ، ورجح الأخيرة على الإفصاح فقال : « قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ... إلا أن ذلك وإن كان على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل فى كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى يغلغل الفكر إلى زواياه ، وحتى لا يبقى فيه موضع ومكان مسألة » (١) ثم أخذ يدلل على مزيتها على التصريح ويتخيل أن سائلا يسأله ، هل زيادة الكناية على التصريح فى ذات المعنى أو فى إثباته ؟ فقال : (٢) ليس المعنى إذا قلنا : إن الكناية أبلغ من التصريح أنك حين كنيت عن المعنى زدت ، فى ذاته ، بل المعنى أنك زدت فى إثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد ، فليست المزية فى قولهم : جم الرماد أنه دل على قرى أكثر ، بل إنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ ، وأوجبته إيجابا هو أشد ، وادعيته دعوى بها أنطق ، وبصحتها أوثق .

ويفهم من كلام عبد القاهر هذا أن مزية الكناية على التصريح راجعة إلى إثبات المعنى لا إلى زيادته ، إذ الكناية فيها إثبات للمعنى بالدليل والبرهان بخلاف التصريح فإن فيه إثبات المعنى من غير دليل ولا برهان ، ولا شك فيه أن إثبات المعنى مصحوبا بالدليل أبلغ من إثباته عاريا من الدليل .

ثم بين أن الكناية إما أن تكون واقعة فى نفس الصفة المراد إثباتها ، وإما أن تكون لإثبات الصفة ، ومثل للأولى بقول زياد الأعجم .

إن السماحة والمروءة والندى ... فى قبة ضربت على ابن الحشرج

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٥ .   (٢) دلائل الإعجاز ص ٥٨

ثم علق عليه بقوله : « فإن الشاعر أراد أن يثبت هذه المعاني والأوصاف خلالا للممدوح ، وضرائب فيه ، فترك أن يصرح فيقول : « إن السماحة والمروءة والندى لمجموعة في ابن الحشرج ، أو مقصورة عليه ، أو مختصة به ، وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها ، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح ، فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه ، وإشارة إليه ، فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة ، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة ، ولو أنه أسقط هذه الواسطة من البين ، لما كان إلا كلاما غفلا وحديثا ساذجا .

ومثل الثانية بقوله : « المجد بين ثوبيه » « والكرم بين برديه » وعلق عليه بقوله : « لأن قائل هذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلهما في ثوبه الذي يلبس » ثم مثل لها أيضا بقول أبي نواس :

فما جازه جود ولا حل دونه ... ولكن يصير الجود حيث يصير

ثم علق على البيت بقوله : « كل ذلك توصلت فيه بالكناية لإثبات الصفة للممدوح بإثباتها في المكان الذي يكون فيه ، وإلى لزومها له بلزوم الموضع الذي يحله .

ثم اشترط عبد القاهر لحسن تصوير الكناية وجمالها أن يوجد فيها التناسب بين ألفاظها ومعانيها ، ثم كشف عن مكان الكناية ، وجعله اللفظ كما جعل الفصاحة فيها عقلية أو معنوية لا لفظية ، وذلك بتقسيمه الكلام الفصيح إلى قسمين :

١ — قسم تعزى المزية فيه إلى اللفظ .

٢ — قسم تعزى فيه المزية إلى المعنى .

وجعل الكناية من القسم الأول .

وحاصل كلام عبد القاهر فى هذا المعنى ، أن المعنى الكنائى لا يعرف من لفظ الكلام وإنما يعرف بالنظر اللطيف والحس الدقيق ، وذلك مرجعه العقل .

ولذلك فإننا نراه يدلل على ذلك فيقول : « ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم : « هو كثير رماد القدر » وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة لم تعرف ذلك من اللفظ ، ولكنك عرفته من رجوعك إلى نفسك ، وقولك : إنه كلام قد جاء عنهم فى المدح ، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد ، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب القدور الكثيرة ، ويطبخ فيها للقرى والضيافة ، وإذا زادت كثرة الطبخ فى القدور ، كثر إحراق الحطب ، وإذا كثر إحراق الحطب تحتها ، كثر الرماد لا محالة » .

ثم كشف عبد القاهر عن بلاغة الكناية وحسن تصويرها ، وبين أنها راجعة إلى طريق إثبات المعنى لا للمعنى نفسه فقال : « فينبغى أن ليس المزايا لهذه الأجناس ـ الكناية والاستعارة والتمثيل والمجاز ، على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التى تحسها فى أنفس المعانى التى يقصد المتكلم بخبره إليها ، ولكنها فى طريق إثباته لها ، وتقريره إياها (١) » .

ويقول فى موضع آخر : « فإنهم (٢) لا يعنون المعانى التى يقصد المتكلم بخبره إليها كالقرى والشجاعة والتردد .... وإنما يعنون إثباتها لما ثبتت له ، ويخبر بها عنه ، فإذا جعلوا لها مزية على التصريح ، لم يجعلوا تلك المزية فى المعنى المكنى عنه ، ولكن فى إثباته للذى ثبت له ، وذلك أنا نعلم أن المعانى التى يقصد الخبر بها لا تتغير فى أنفسها ، بأن يكنى عنها بمعان سواها ويترك

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٤٣   (٢) دلائل الإعجاز ص ٣٤٣ ، ٣٤٤

الألفاظ التي هي لها في اللغة ، وإنما كان بإثبات شاهدها ودليلها ، وما كان علم على وجودها .

وما لاشك فيه أن ذلك لاعلاقة أبلغ من إثباتها بنفسها لأنها على الأول يكون سبيلها سبيل للدعوى يكون معها شاهده»

ودراسة عبد القاهر للكناية دراسة فريدة ، وجديدة ، لم أرها لأحد من السابقين فقد خطت الكناية على يديه خطوات واسعة، فقد عرفها ، وشرح تعريفها وبين فضلها على التصريح ومزيتها على الإفصاح ، ووضع فروعها وأقسامها ، وكشف النقاب عن حسنها وجمالها ، ووضع شروطا لهذا الحسن والجمال ، وبين موضعها ، ونوع دلالتها ، ثم أزاح الستار عن بلاغتها بأسلوب جمع فيه بين الروعة الأدبيه ، والدقة العلميه ، وقد عالج كل هذه الجوانب البلاغيه معالجة الخبير بأساليب اللغه العربيه المتذوق حلاوتها التام لأهدافها ومراميها الواقف على أسرارها ودقائقها ، وقد امتازت دراسته بالعمق والتعليل ، وإن كنت آخذ عليه عدم تبويبها ، ودراستها دراسة منهجيه في مكان واحد ، تمكن الباحث أن يضع يده عليها بسهولة ، فلقد تكلم عنها في عدة مواضع في كتابه « دلائل الإعجاز »

أبو يعقوب السكاكي والكناية

ثم تحدث عن الكنايه بعد عبد القاهر « أبو يعقوب السكاكي » المتوفى سنة ٦٢٦ هـ في كتابه « المفتاح » تحت الأصل الثالث من علوم البيان فعرفها بقوله (١) : «هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ماهو ملزومه ، لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول : زيد طويل النجاد ، فينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة »

---

(١) المفتاح ص ٢١٣ .

ثم علل لسبب هذه التسمية فقال : « وسمى هذا النوع كناية لما فيه من إخفاء وجه التصريح ، ودلالة كنى على ذلك لأن : ك ن ى كيفما تركبت دارت مع معنى الخفاء . . . ومنه تكنى فى العدو ينكى إذا أوصل إليه مضاراً من حيث لا يشعر بها ، ومنه نكايات الزمان لمصائبه الملمة على بنيه من حيث لا يشعرون » .

ثم فرق بين المجاز والكناية من وجهين :

الأول : أن الكناية لا تنافى إرادة الحقيقة بلفظها فلا يمتنع فى قولك : « فلان طويل النجاد » أن تريد طول نجاده من غير ارتكاب تأول مع إرادة طول قامته ، والمجاز ينافى ذلك فلا يصح فى نحو « رعينا الغيث » أن تريد معنى الغيث ، والمجاز ملازم لقرينة معاندة لإرادة الحقيقة .

الثانى : مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم .

ثم قسم الكناية من حيث المطلوب بها إلى ثلاثة أقسام :

الأول : كناية يطلب بها موصوف ، وجعلها قريبة ، وهى ما يتفق فى صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين عارض ، فتذكرها متوصلا بها إلى ذلك الموصوف كقولك : جاءنى المضياف ، وتريد زيداً لعارض من اختصاص للضيافة بزيد .

وبعيدة : وهى أن تتكلف اختصاص الكناية بأن تضم إلى لازم آخر ، وآخر حتى تلفق مجموعا وصفيا مانعا من دخول كل ما عدا مقصودك ، مثل أن تقول كناية عن الإنسان : حى مستوى القامة عريض الأظفار .

الثانى : كناية يطلب بها نفس الصفة ، وجعلها أيضا قريبة ، وهى ما يتقل

فيها إلى المطلوب من أقرب لوازمه كما تقول: « فلان كثير أضيافه » ، والكناية التي يطلب بها صفة قد تكون واضحة لا تحتاج إلى تأمل ، وقد تكون خفية تحتاج إلى تأمل ودقة فهم كقولك : « فلان عريض القفا » كناية عن البلاهة .

وبعيدة : وهي التي ينتقل فيها من لوازم بواسطة لوازم متسلسلة كقولك : « فلان كثير الرماد » لأنك تنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر ، ومن كثرة الجمر ؛ إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور ؛ ومن كثرة إحراق الحطب إلى كثرة الطبخ ، ومن كثرة الطبخ إلى كثرة الأكلة إلى كثرة الضيفان إلى أنه مضياف .

الثالث : كناية تخصيص الصفة بالموصوف ، وهي أيضا تتفاوت في اللطف فتارة تكون لطيفة ؛ وأخرى تكون ألطف .

ثم قسم الكناية تقسيما آخر باعتبار مفهومها ، فإن كانت عرضية كقوله تعالى في عرض حال المنافقين « هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب » إذ فسر الغيب بالغيبية بمعنى يؤمنون مع الغيبة عن حضرة النبي - ﷺ - أو عن جماعة المسلمين ، على معنى هدى للذين يؤمنون عن إخلاص لا الذين يؤمنون عن نفاق ، فإن كان التعبير كذلك ؛ وبهذا المعنى كان إطلاق اسم التعريض عليه مناسبا .

وإذا كان التعبير بينه وبين المكنى عنه بعد التوسط عدة لوازم كما في قولك « كثير الرماد » كان إطلاق اسم التلويح عليه مناسبا لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد .

وإن كانت المسافة بين الصورة والمكنى عنه قريبة مع شيء من الخفاء كما

فى قولك : «عريض القفا ، وعريض الوسادة ، كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسبا ، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية قال الشاعر فى هذا المعنى :

رمزت إليها مخافة من بعلها من غير أن تبدى هناك كلامها

وإن لم يكن فى الصورة شىء من الخفاء كان إطلاق اسم الإيماء و الإشارة عليها مناسبا كقول أبى تمام :

أبين فما يزرن سوى كريم وحسبك أن يزرن أبا سعيد

فإن الصورة واضحة فى التعبير عن كرم أبى سعيد .

وكقول البحترى فى التعبير عن جود ابن يحى وكرمه :

سألت الندى والجود مالى أراكما تبدلتما ذلا بعز مؤبد

وما بال ركن المجد أمسى مهدما فقالا : أصبنا بابن يحى محمد

فقلت : فهلا متما عند موته فقد كنتما عبديه فى كل مشهد

فقالا : أقمنا كى نعزى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

هذا ماقدمه السكاكى للكناية فى البلاغة العربية .

وإن من يتأمل دراسة السكاكى للكناية ، يدرك أنها دراسة جافة قامت على الفلسفة والمنطق ، فقد اعتمد فيها السكاكى على العقل ، وبعد كل البعد عن الدراسة الأدبية التى تعتمد على الذوق والإحساس ، وتقوم على النقد والتعليل فقد وجه كل اهتمامه وصرف كل جهده إلى التقسيمات والتفريعات ، وأغرق فى المسائل الفلسفية والقضايا المنطقية ، حتى أصبحت هذه الصورة البيانية الجميلة فى كلامه كأنها قضية منطقية ، أو نظرية هندسية ، أو مسألة حسابية ، تكد الذهن

وترهق الفكر ، ليس فيها ما يحرك شعوراً ، أو يثير عاطفة . والسكاكي عذره في ذلك ، فقد تأثر في دراسته للكناية بثقافته الفلسفية المنطقية .

ولكننا مع كل هذا لا نجحد فضل السكاكي على هذه الصورة البيانية الجميلة ، فقد خطت على يديه بعض الخطوات التي تستحق التسجيل ، فقد عرفها تعريفاً جامعاً مانعاً ميزها عن غيرها من سائر الصور البيانية ، وإن كان قد تأثر في هذا التعريف بمن سبقه من علماء البلاغة ، وبخاصة الإمام عبد القاهر الجرجاني كما أنه قد فرق بينها وبين المجاز ، وهذا عمل جليل قد انفرد به فلم يسبقه إليه أحد وبذلك نستطيع أن نقول في اطمئنان إن هذه الصورة الجميلة قد تحددت معالمها وتميزت تميزاً كاملاً من غيرها على يد السكاكي . وإن كان قد ظلمها وجار عليها فأفقدها الكثير من حسنها وجمالها حين ألبسها ثوباً قاتماً من الفلسفة والمنطق .

ابن الأثير والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد ذلك « ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ في كتابيه « المثل السائر والجامع الكبير » فبين أصل اشتقاقها فقال : « (١) واعلم بأن الكناية مشتقة من (٢) الستر يقال : كنيت الشيء اذا سترته ، وأجرى هذا الحكم (٣) في الألفاظ التي يستتر بها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر والمستور معاً » .

---

(١) المثل السائر ج٣ ص٥٢

(٢) تعبيره بأنها مشتقة من الستر فيه شيء من التجاوز إذ إنها مشتقة من الكنى بمعنى الستر

(٣) أي حكم الكناية

وقيل إنها مشتقة من الكنية التى يقال فيها أبو فلان — أى ما صدرت بأب أو أم — فإذا نادينا رجلا اسمه عبد الله وله ولد اسمه محمد فقلنا يا أبا محمد كان ذلك مثل قولنا : يا عبد الله ، فإن شئنا ناديناه بهذا ، وإن شئنا ناديناه بهذا ، فكلاهما دال عليه ، وكذلك يجرى الحكم فى الكناية ، فإذا شئنا حملناها على جانب المجاز ، وإن شئنا حملناها على جانب الحقيقة ، إلا أنه لابد من الوصف الجامع بينهما لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة » فكنى بالنعجة عن النساء (١) ، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث ، ومن أجل هذا لا يلتفت إلى تأويل من تأول قوله تعالى : « وثيابك فطهر » أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية لأنه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع ، ولو كان بينهما وصف جامع لصح التأويل .

ثم استدل على اشتقاق الكناية من الكنى أو من الكنية بقوله : أما اشتقاقها من كنيت الشىء إذا سترته ، فإن المستور فيها هو المجاز ، لأن الحقيقة تفهم أولا ، ويسارع إليها الفهم قبل المجاز ، لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية وأما المجاز فإنه يفهم بعد فهم الحقيقة ، وإنما يفهم بالنظر والفكر ، ولهذا يحتاج إلى دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ ، فالحقيقة أظهر والمجاز أخفى ، وهو مستور بالحقيقة .

وأما اشتقاقها من الكنية ، فلأن عبد الله فى الصورة الماضية هو حقيقة هذا الرجل أى الاسم الموضوع بإزائه أولا ، وأما أبو محمد فإنه طارئ عليه بعد عبد الله لأنه لم يكن له ، إلا بعد أن صار له ولد اسمه محمد ، وكذلك الكناية فإن

---

(١) الأولى أن يقال كنى بالنعجة عن المرأة

الحقيقة إنما هي الاسم الموضوع أولا في أصل الوضع ، وأما المجاز فإنه طارىء عليها بعد ذلك ، لأنه فرع ، والفرع يكون بعد الأصل ، وإن يعد ذلك الفرع المناسبة الجامعة بينه وبين الأصل .

ثم عرف الكناية بقوله(١) . « وأما الكناية فقيل : هي اللفظ الدال على الشيء على غير الوضع بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه »

ولكن هذا التعريف لم يعجبه فأبطله لجواز أن يكون هذا التشبيه فإنه اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقي لجامع بين المشبه والمشبه به في وصف من الأوصاف .

ثم أورد تعريفا لعلماء الأصول الذين قالوا (٢) : « الكناية هي اللفظ المحتمل » يريدون بذلك أنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وخلافه ، وأبطله أيضا بقوله : ليس كل لفظ يدل على المعنى وخلافه كناية ، بقول النبي صلى الله عليه وسلم :

« إذا لم تستح فافعل ماشئت » يدل على المعنى وعلى خلافه ، فأحد معنييه : إنك إذا لم يكن لك وازع يزعك عن الحياء فافعل ماشئت ، والآخر : إذا لم تفعل فعلا يستحى منه فافعل ماشئت ، وهذا ليس من الكناية في شيء ثم عرفها بتعريف ظن أنه جامع مانع فقال (٣) : « وإذا كان الأمر كذلك ، فحد الكناية الجامع لها هو « أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز »

---

(١) المثل السائر جـ٣ صـ٥٥

(٢) المثل السائر جـ٣ صـ٣

(٣) المثل السائر جـ٣ صـ٥٢ تحقيق الدكتورين الحوفي وطبانة

وبالتأمل فى هذا التعريف نجد أنه وثيق الصلة بمعنى الكناية فى اللغة ، إذ إنها فى أصل الوضع أن تتكلم بشيء ، وتريد غيره ، يقال : كنيت بكذا عن كذا ، فهى تدل على ما تكلمت به ، وعلى ما أردته فى غيره ؛ وأنها مشتقة من الكنى بمعنى الستر

يقال : كنوت الشيء إذا سترته ، وأجرى هذا الحكم فى الألفاظ التى يستر بها المجاز بالحقيقة ، فتكون دالة على الساتر والمستور معا .

ثم قسم ابن الأثير الكناية من حيث استعمالها إلى :

١ — حسنة : وأوردها كثيرا من من الشواهد (١) من القرآن والسنة ، ومنثور كلام العرب ومنظومه ومن هذه الشواهد قوله تعالى : « أولا مستم النساء » ثم علق عليه بقوله : « فإنه إن حمل على الجماع كان كناية ، لأنه ستر الجماع بلفظ اللمس الذى حقيقته مصافحة الجسد الجسد ، وإن حمل على الملامسة التى هى مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة ، ولم يكن كناية ، وكلاهما يتم به المعنى ، ولهذا ذهب الإمام الشافعى إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد الجسد فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة ، وذلك هو الحقيقة فى اللمس وذهب غيره إلى أن المراد باللمس هو الجماع ، وذلك مجاز فيه ، وهو الكناية .

ومن هذه الشواهد أيضا قوله تعالى : « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها » ثم بين موضع الكناية فى الآية الكريمة بقوله : « والأرض التى لم تطؤها كناية عن مناكح النساء »

ومن الشواهد النبوية التى أوردها قول النبى — صلى الله عليه وسلم —

---

(١) المثل السائر ص ٦٢ ، ٦٥-٦٧ ، ٦٨ ج ٣ تحقيق الدكتور بدوى الحوفى وطبانة
(٢) الأحزاب : ٢٧

« رويدك(٣) سوقك بالقوارير » ثم بين موضع الكناية بقوله : « يريد بذلك النساء ، فكنى عنهن بالقوارير »

ومن شواهده النبوية أيضا ماروى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ـ فقال يارسول الله هلكت،قال وما أهلكك؟ قال : حولت رحلى البارحة ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقبل ، وأدبر ، واتق الدبر والحيضة »

ومن شواهده التى أوردها من المنثور ما روى أن امرأة جاءت لعائشة رضى الله عنها ـ فقالت لها : أقيد جملى ؟ فقالت عائشة ـ رضى الله عنها « لا » ثم علق على الشاهد مبينا موضع الكناية فقال : « أرادت المرأة أن تضع لزوجها شيئا يمنعه عن غيرها ، أى تربطه أن يأتى غيرها ، فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل ، وباطنه ما أرادته المرأة ، وفهمته عائشة »

ومن ذلك ماروى أن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ زوج ولده عبدالله رضى الله عنه فكثت المرأة عنده ثلاث ليال لم يدن منها ، وإنما كان ملازما إلى صلاته ، فدخل عمرو بعد الثلاث ، فقال : كيف ترين بعلك ؟ فقالت نعم البعل إلا أنه لم يفتش لنا كنفا ، ولا قرب لنا مضجعا » .

ثم بين ابن الأثير الكناية فى قول المرأة ووصفها بالحسن والجودة فقال :

---

(٣) قاله النبى صلى الله عليه وسلم لغلام أسود اسمه أنجشة كان يحدو بالنساء ركابين فى بعض أسفاره وىرتجز بنسيب الشعر والرجز وراءهن ، فأمره بالكف عن نسيبه وحدائه حذار صبوتهن إلى غير الجميل . وقيل إن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت فى السير واشتدت فأزعجت الراكب فأتعبته فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة . لسان العرب مادة قرر والنهاية لابن الأثير جـ٣ صـ٢٤٠ .

فقولها « لم يفتش لنا كنفا ، ولا قرب لنا مضجعا » من الكناية القريبة الظاهرة .

ومن أمثال العرب التي أوردها ، واستشهد بها على الكناية قولهم : « إياك وعقيلة الملح » ثم بين الكناية في المثل بقوله : « وذلك كناية عن المرأة الحسناء في منبت السوء فإن عقيلة الملح هي اللؤلؤة تكون في البحر فهي حسناء، وموضعها ملح » .

وقولهم « لبس له جلد النمر » كناية عن العداوة .

ومن شواهده التي أوردها من المنظوم قول أبي تمام في قصيدته التي يستعطف بها مالك بن طوق على قومه والتي مطلعها :

« أرض مصردة ، وأرض مثجم (١) »

مالي رأيت ترابكم يبس الثرى . مالي أرى أطوادكم تتهدم

ثم بين الكناية في البيت بقوله : « فيبس الثرى كناية عن تنكر ذات البين تقول : يبس الثرى بيني وبين فلان ، إذا تنكر الود الذي بينك وبينه، وكذلك تهدم الأطواد ، فإنه كناية عن خفة الحلوم ، وطيش العقول » .

وقول أبي الطيب المتنبي في قصيدته التي يعاتب فيها سيف الدولة بن حمدان التي مطلعها : « واحر قلباه ممن قلبه شبم »

وشر ما قنصته راحتي قنص . شهب البزاة سواء فيه والرخم

ثم علق على البيت بقوله : « يشير بذلك إلى أن سيف الدولة يستوى في المثال منه هو وغيره ، فهو البازي ، وغيره الرخمة .

---

(١) مصردة : قليلة الري والمطر – مثجم : يدوم عليها المطر .

٤ — قبيحة ، وأورد لها كثيرا من الشواهد (١)

ثم أشار إلى أن الكناية وردت فى غير اللغة العربية فقال (٢) : « ووجدتها فى اللغة السريانية ، فإن الإنجيل الذى فى أيدى النصارى قد أتى منها بالكثير ، ومما وجدته فى الكناية فى لغة الفرس أنه كان رجل من أساورة (٣) كسرى ، وخواصه ، فقيل له : إن الملك يختلف إلى امرأتك ، فهجرها لذلك وترك فراشها فأخبرت كسرى فدعاه وقال له : قد بلغنى أن لك عينا عذبة وأنك لا تشرب منها فما سبب ذلك ؟ قال أيها الملك بلغنى أن الأسد يردها فخفته فاستحسن كسرى منه هذا الكلام ، وأجزل عطاءه »

ثم تحدث عن التعريض ، وفرق بينه وبين الكناية فقال : « وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشىء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقى والمجازى ، بأنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : والله إنى لمحتاج ، وليس فى يدى شىء ، وأنا عريان ، والبرد قد آذانى ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعا فى مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا ، إنما دل عليه من طريق المفهوم بخلاف دلالة الكناية فى أية صورة مما مضى ويؤكد هذه التفرقة بقوله أيضا . » (٤) والتعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا بالمجازى ، ثم علل لسبب تسميته بالتعريض فقال :

---

(١) المثل السائر جـ٣ صـ٧٠ وما بعدها (٢) المثل سائل جـ٣ صـ٧٥

(٣) الاساورة جمع أسوار بضم الهمزة وكسرها : وهو القائد من الفرس أو هو الفارس

(٤) المثل السائر جـ٣ ص٥٧ .

« وإنما سمى التعريض لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أى جانبه ـ وعرض الشيء جانبه ـ

ثم استرسل فى توضيح الفرق بين الكناية والتعريض فقال : « كما أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ، فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتى من اللفظ المفرد ألبتة ، والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ، ولا من جهة المجاز ، وإنما يفهم من جهة التلويح والإشارة ، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ، ولكنه يحتاج فى الدلالة عليه إلى اللفظ المركب »

وبالتأمل فى كلام ابن الأثير نستطيع أن نقول فى إيجاز إن الفرق بين الكناية والتعريض عند ابن الأثير يتلخص فى ثلاثة أمور :

١ — التعريض اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقى والمجازى والكناية كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز .

٢ - دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ، ولا المجازى ، لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أى من جانبه .

٣ — الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ، فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتى فى اللفظ المفرد ألبتة .

هذا ما قدمه ابن الأثير للكناية فى البلاغة العربية ، ولقد اتجه فى دراسته

لما اتجاها أدبيا ، اعتمد فيه على ذوقه وحسه ، فأكثر من الشواهد الأدبية ، وخرجها تخريجا حسنا ، وحللها تحليلا جميلا ، جمع فيه بين الروعة الأدبية ، والدقة العلمية ، وبين الحسن منها ، والقبيح ، مع الإقلال من القواعد ، والابتعاد عن الإغراق فى التقسيمات والتفريعات وبذلك نستطيع أن نقول إن ابن الأثير قد وضع أسس اتجاه جديد فى البلاغة فى زمن اتجهت فيه البلاغة على يد السكاكى إلى التقعيد والتقنين والإغراق فى التقسيمات والتفريعات .

كما امتازت دراسته للكناية بالإحاطة والشمول ، فلم يكتف بدراستها فى اللغة العربية كما فعل غيره من العلماء السابقين ، بل تعدى هذا إلى دراستها فى اللغة السريانية والفارسية وإن كنت آخذ عليه أنه لم يكشف القناع عن بلاغة الكناية ، ولم يحدثنا عن أثرها فى الأساليب العربية .

ابن أبى الاصبع والكناية

ثم تحدث عن الكناية « ابن أبى الإصبع المصرى » المتوفى سنة ٦٥٤هـ فى كتابيه « تحرير التحبير ، وبديع القرآن » فعرفها بقوله : « هى عبارة عن تعبير المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن وعن النجس بالطاهر ، وعن الفاحش بالعفيف(١) » وهذا إذا قصد المتكلم نزاهة كلامه عن العيب ، وقد يقصد بالكناية غير ذلك ، وهو أن يعبر عن الصعب بالسهل ، وعن البسط بالإيجاز ، أو يأتى للتعمية والإلغاز ، أو للستر والصيانة » ثم أورد لها كثيراً من الشواهد من القرآن ، والحديث ، وجيد الشعر للجاهليين والمحدثين مخرجا تلك الشواهد ، مبينا موضع الشاهد فيها .

---

(١) تحرير التحبير ص ١٤٣ ، وبديع القرآن ص ٥٢

ومن شواهده التي أوردها قوله تعالى : « كانا يأكلان الطعام » ثم بين الكناية في الآية الكريمة بقوله : « كناية عن الحدث لأنه ملازم أكل الطعام (١) » .

وقوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من الغائط » ثم علق على الآية بقوله : « لأنه (٢) المنخفض من الأرض الذي يقصد لقضاء الحاجة . فسمى الحدث باسم موضعه »

وقوله تعالى : « ولكن لا تواعدوهن سراً » كناية عن الجماع ، وقوله تعالى : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » كناية عن المباضعة .

ودراسة ابن أبي الإصبع المصري للكناية دراسة جديدة وفريدة ، فهي دراسة أدبية رائعة جميلة ، تهدف إلى الكشف عن الفوائد الأدبية التي تكمن في الصور البلاغية ، فابن أبي الإصبع درس الكناية على أنها صورة أدبية ، وطريق من طرق التعبير الفني الجميل التي يسلكها الأديب للتعبير عما يجول في نفسه من المعاني ، ويجيش في صدره من الخواطر ، وقد استطاع بمهارته الأدبية ، ودقته الفنية أن يكشف النقاب عن فوائد الكناية ، ويحصرها فيما يلي : —

١ — التعبير عن المعنى القبيح باللفظ الحسن

٢ — التعبير عن النجس بالطاهر ، وعن الفاحش بالعفيف

٣ — التعبير عن الصعب بالسهل

---

(١) بديع القرآن ص ٥٣ (٢) أي الغائط .

٤ — الإعجاز

٥ — الستر والصيانة

٦ — التعمية والإلغاز

والعجيب أن هذه الدارسة الأدبية الرائعة التي اتجه إليها ابن أبي الإصبع تأتي في وقت قد اتجهت فيه البلاغة على يد السكاكي إلى التقعيد والتقنين، ولكن لاغرابة ولاعجب أن يتجه ابن أبي الإصبع إلى هذه الدارسة، فهو أديب مطبوع، وناقد فذ، قد حباه الله ذوقا رقيقا، وذهنا صافيا، وحسا مرهفا، وخيالا خصبا، كما أنه نشأ في البيئة المصرية الجميلة الساحرة، والتي خلت أرضها الطيبة من الفلسفة والمنطق.

وهذا الاتجاه الأدبي، وإن كان قد وضع أسسه ابن الأثير كما سبق أن أشرنا إلى ذلك أثناء حديثنا عن الكناية عند ابن الأثير، إلا أن ابن أبي الإصبع لم يقف عند حد الأسس التي وضعها ابن الأثير، بل تعدى ذلك إلى شيء جديد هو الكشف عن الفوائد الأدبية التي تكمن في الصور البلاغية، وهذا الكشف الجديد قد غاب عن ابن الأثير، وتوصل إليه ابن أبي الإصبع وانفرد به فهو من جديده الذي لم يسبق إليه.

عز الدين بن عبد السلام والكناية.

ثم تحدث عن الكناية الشيخ عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ في كتابه « الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز » فقال(١) : « النوع

---

(١) انظر ص ٨٥ من كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز

السادس عشر الكنايات كما جاء فى قول إحدى النسوة فى حديث أم زرع « زوجى رفيع العماد ، طويل النجاد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد »

ثم أخذ فى بيان الكنايات فى الحديث فقال : « كنت برفعة عماده عن شرفه ومنزلته ، لأن من طالت قامته طال نجاد سيفه ، وكنت بعظم رماده عن كثرة ضيافته ، وإطعامه ، لأن الرماد لا يعظم إلا عن كثرة الطبخ والإحراق للحطب الكثير ، وكنت بقرب بيته من المجلس عن كرمه لأن البخلاء كانوا يبعدون بيوتهم عن المجلس كيلا يستتبعون الأضياف منه وكانو ينزلون فى المواضع المنخفضة كيلا يراهم الضيفان فيأتونهم ، ولذلك قال طرفه :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد(٢)

ثم بين أن الكناية ليست من المجاز فقال : « والظاهر أن الكناية ليست من المجاز لأنها (٣) استعملت اللفظ فيما وضع له ، وأرادت به الدلالة على غيره ولم تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له ، وهذا شبيه بدليل الخطاب فى مثل قوله تعالى : « فلا تقل لهما أف » وفى مثل نهيه عن التضحية بالعوراء والعرجاء »

ودراسة الشيخ عز الدين بن عبد السلام للكناية تسير فى نفس الاتجاه الأدبى الذى وضع أسسه ابن الأثير وغيره ، ويجدد فيه ابن أبى الإصبع المصرى فقد أورد حديث أم زرع وكشف عما فيه من الكنايات بأسلوب جمع فيه بين الروعة الأدبية والدقة العلمية . إلا أننى آخذ عليه أنه لم يضع تعريفا للكناية

---

(٢) التلاع : جمع تلعة ، وهى من الأضداد يطلق على الارتفاع والانخفاض

(٣) أى أم زرع .

تتميز به عن غيرها من الصور البلاغية أى أن إ إحدثنا عن فوائد الكناية كما فعل ابن أبى الإصبع المصرى من قبله كما آخذ عليه قلة الشواهد الأدبية فقد ا كتفى بحديث أم زرع وكنت انتظر منه وهو الأديب الأريب والعالم المدقق والناقد الخبير أن يكثر من الشواهد الأدبية وأن يتناولها بالنقد والتحليل مبينا مافيهـــا من الجودة والحسن أو الرداءة والقبح معللا أسباب ذلك .

النويرى والكناية :

ثم تحدث عن الكناية بعد الشيخ عزالدين بن عبدالسلام «النويرى»(١) المتوفى سنة ٧٣٣ هـ فى كتابه «نهاية الأرب» فعرفها بقوله (٢) : «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيؤمىء به إليه ، ويجعله دليلا عليه» ثم أورد لها بعض الشواهد الأدبية من القرآن الكريم والشعر ، ومن الشواهد التى أوردها قوله تعالى : «إن الذين كفروا بعد إيمانهم ، ثم ازدادوا كفرا ، لن تقبل توبتهم» ثم كشف عن الكناية فى الآية الكريمة بقوله : «كنى بنفى قبول التوبة عن الموت على الكفر» .

ومن الشواهد الشعرية التى أوردها قول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل ... أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ثم بين موضع الكناية فى البيت بقوله . «أراد أن يذكر جيدها ، فأتى

---

(١) هو الإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد عبدالدايم البكرى التيمى القرشى المعروف بالنويرى المولود بقوص سنة ٦٧٧ هـ والمتوفى بالقاهرة سنه ٧٣٣ هـ

(٢) نهاية الأرب جـ ٧ ص ٥٩

بتابعه ، وهو بعد مهوى القرط »

ومن شواهده الشعرية أيضا قول ليلى الأخيلية :

ومخرق عنه القميص تخاله وسط البيوت من الحياء سقيما

ثم بين الكناية فى البيت بقوله : « كنت عن جوده بخرق القميص من جذب العفاة له عند ازدحامهم لأخذ العطاء »

ثم ذكر أن الكناية قد تكون فى المثبت كما فى الأمثلة السابقة ، وقد تكون فى الاثبات ثم عرف الكناية فى الإثبات بقوله : « وهى ما إذا حاولوا إثبات معنى من المعانى لشىء فيتركون التصريح بإثباته له ، ويثبتونه لما له به تعلق » ثم مثل لها بقولهم : « المجد بين ثوبيه ، والكرم بين برديه » وقول زياد الأعجم :

أن المروءة والسماحة والندى فى قبة ضربت على ابن الحشرج

ثم بين أن الكناية ليست من المجاز فقال (١) : « واعلم أن الكناية ليست من المجاز لأنك تعبر فى ألفاظ الكناية معانيها الأصلية ، وتفيد بمعناها معنى ثانيا هو المقصود فتريد بقولك : كثير الرماد حقيقته ، وتجعل ذلك دليلا على كونه جوادا ، فالكناية ذكر الرديف ، وإرادة المردوف »

ثم فرق بينها وبين التعريض بأن التعريض : تضمين ، الكلام دلالة ليس لها ذكر كقولك : « ما أقبح البخل » لمن تعرض ببخله (٢)

والنويرى فى دراسته للكناية قد تأثر بالشيخ عبد القاهر الجرجانى فتعريفه

(١) نهاية الأرب جـ٧ صـ٥٩ (٢) نهاية الأرب جـ٧ صـ٦٠

الـكناية هو تعريف عبد القاهر ، وشواهده هى شواهده ، كما تأثر فى دراسته أيضا بالشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فقد نفى أن تـكون الـكناية من المجاز متابعا فى ذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وقد علل نفى المجاز عنها بنفس التعليل الذى ذكره عز الدين بن عبد السلام مع الاختلاف فى الصياغة وبذلك نستطيع أن نقول إن النويرى لم يضف إلى الـكناية جديدا يذكر فقد ترسم خطا الشيخين عبد القاهر الجرجانى وعز الدين بن عبدالسلام وإنى آخذ عليه قلة الشواهد الأدبية مع أنه أديب ذواقة قد منحه الله ذوقا رقيقا ، وذهنا صافيا ، كما آخذ عليه عدم تعليقه على بعض الشواهد التى أوردها ، وعدم تناوله هذه الشواهد بالنقد والتحليل .

الخطيب القزوينى والـكناية

ثم تحدث عن الـكناية « الخطيب القزوينى » المتوفى سنة ٧٣٩ هـ فى كتابه « الإيضاح » فعرفها بقوله (١) : « الـكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ »

ثم فرق بينها وبين المجاز ، بأن الـكناية يجوز فيها إرادة المعنى مع إرادة لازمه ، والمجاز لا يجوز فيه ذلك ، لأنه ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة ، وملزوم معاند الشيء معاند لذلك الشيء ؛ فلا يصح فى قولنا : فى البيت أسد ؛ أن تريد معنى الأسد من غير تأول .

ثم قسم الـكناية بحسب المطلوب بها إلى ثلاثة أقسام :—

١ — قسم يطلب به موصوف

---

(١) انظر ص ٢٣١ من كتاب الإيضاح

٢ ـ قسم يطلب به صفة

٣ ـ قسم يطلب به نسبة

ثم قسم كل نوع إلى قريب وبعيد

وقد ترسم فى هذا التقسيم خطا السكاكى .

ودراسة الخطيب القزوينى للكناية تسير فى الاتجاه الذى رسمه السكاكى ، والذى مزق به أوصال البلاغة العربية ، وسلبها حسنها وجمالها ، وأفقدها بهاءها ورواءها فهو لم يزد فى دراسته للكناية عما قاله السكاكى ، ولم يقدم جديدا يستحق الذكر والتسجيل

العلوى والكناية :

ثم تحدث عن الكناية بعد الخطيب القزوينى «أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوى اليمنى» المتوفى سنة ٧٤٩ هـ فى كتابه «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ، وعلوم حقائق التنزيل» فأماط اللثام عن منزلتها فى البيان العربى فقال : « اعلم أن الكناية واد من أودية البلاغة وركن من أركان المجاز (١) »

ثم كشف عن حقيقتها فى لسان أهل اللغة فقال : « الكناية مصدر كنى يكنى وكنيته تكنيه حسنة ، ولامها واو ، وياء ، يقال : كناه يكنيه ، ويكنوه (٢) »

ثم كشف أيضا من عن حقيقتها فى لسان أهل اللغة فقال : « الكناية

---

(١) انظر صـ ٣٦٤ (٢) انظر صـ ٣٦٥

مقولة على ما يتكلم به الإنسان ويريد به غيره » وأنشد الجوهرى لأبى زياد :

وإنى لأكنو عن قذور بغيرها — وأعرب أحيانا بها فأصارح

والكنية بالضم ، والكسر فى فائها ، واحدة الكنى ، واشتقاقها من الستر يقال : كنيت الشىء . إذا سترته » وإنما أجرى هذا الاسم على هذا النوع من الكلام لأنه يستر معنى ، ويظهر غيره (١) »

ثم كشف عن حقيقتها عند علماء البيان فذكر تعريفاتهم ، وناقشها مناقشة الأديب المتذوق والعالم المدقق ، فذكر تعريف الشيخ عبد القاهر لها وهو أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيومىء به إليه ، ويجعله دليلا عليه »

وبين أنه فاسد لأمور ثلاثة :

١ — الأمر الأول : أن قوله « تاليه » إما أن يريد به مثله فهو خطأ فإن الكناية ليست مماثلة لما كان من اللفظ الذى ترك بالكناية ، وإما أن يريد معنى آخر فيجب ذكره حتى ننظر فيه إما بصحة أو فساد .

٢ — الأمر الثانى : أن قوله : « فيومىء به » ليس يخلو الإيماء إما أن يكون على جهة الحقيقة أو على جهة المجاز ، فلفظة الإيماء محتملة لما ذكرناه ، وليس فى الإيماء إشارة إلى أحد الوجهين ، فلابد من بيان أحدهما ، وإلا كان كلاما مجملا لا يفيد فائدة وهو مجانب لصناعة الحدود .

(١) الطراز ص ٣٦٦

٣ــ الأمر الثالث : أن هذا التعريف ليس مانعا لأنه يدخل الاستعارة في الكناية لأن قولك : « رأيت أسدا ولقيت بحرا ، قد تركت فيه اللفظ الموضوع للشجاعة والكرم ، وأتيت بتاليهما ، وأومأت إليه (١) »

ثم ذكر تعريف ابن الأثير الذى حكاه عن بعض علماء البيان ، وارتضاه وهو « اللفظ الدال على الشيء بغير الوضع الحقيقى بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه » وأبطله بثلاثة أمور :

١ــ الأمر الأول : أن هذا يبطل بالتشبيه فإنه اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقى فى وصف من الأوصاف كقولنا : « كأن زيدا الأسد » فأدخل فيه ماليس منه .

٢ــ الأمر الثانى : أن الكناية لا تفتقر إلى جامع ، فإنه إذا قلنا : «فلان كثير رماد القدر » وجعلنا هذا دلالة على كونه كريما ، فهو غير محتاج إلى ذكر جامع ، فاعتبار ذكر الجامع فى الكناية يخرجها عن حقيقة وضعها ، ويبطل فائدتها .

٣ ـ الأمر الثالث : أنه ذكر الكناية والمكنى عنه فى حد الكناية ، وهذا فيه تفسير الشيء بنفسه ، وإحالة بأحد المجهولين على الآخر فهو باطل (٢).

ثم ذكر تعريف ابن سراج المالكى فى كتابه المصباح وهو ترك التصريح بالشيء إلى مساويه فى اللزوم لينتقل منه إلى الملزوم »

---

(١) الطراز ص ٣٦٧
(٢) الطراز ص ٣٦٩

وبين وجه فساده بأمرين : —

١ — الأول : أن ما ذكره حاصل فى الاستعارة فى نحو قولك : « رأيت الأسد ولقيت البحر » فإنك تركت التصريح بقولك : « لقيت الشجاع » إلى لفظ « الأسد » والكريم إلى لفظ « البحر » والكناية مخالفة للاستعارة فى ماهيتها ، فلا يخلط أحدهما بالآخر .

٢ — الثانى : أن قوله : « إلى مساويه فى اللزوم لينتقل منه إلى الملزوم » إن أراد بالملزوم ، المدلول فذكر المدلول أوضح ، فلا حاجة إلى العدول عنه ، وإن أراد به معنى آخر غير المدلول فهو خطأ ، لا فائدة فيه لأنه لا مشاركة بينهما ، إلا فى مدلولها لا غير ، ولهذا كان كناية عنه . ثم التمس له العذر لأنه كان مولعا بممارسة المنطق ، ومعالجة قلبت عليه عباراته (١) .

ثم ذكر تعريف حكاه ابن الأثير عن بعض الأصوليين وهو « إنها اللفظ الذى يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه »

وبين فساده بأمرين :

١ — الأول : أن ما قاله يبطل باللفظ المشترك فى نحو قولك : « قرء ، وشفق » فإن كل واحد منهما دال على معنى ، وعلى خلافه .

٢ — الثانى : أن ما ذكره يبطل بالحقيقة والمجاز ، فإن قولنا « أسد وبحر » كما يدل على ما وضع له بالحقيقة فهو دال على ما استعمل فيه من المجاز فيلزم أن يكون ما ذكرناه من الكناية وهو باطل (٢) .

---

(١) الطراز ص ٢٧٠
(٢) الطراز ص ٢٧١ .

ثم ذكر تعريف ابن الخطيب الرازى فى كتابه « نهاية الإيجاز » وهو « اللفظ الدال على معنى مقصود مع ملاحظة معناه الأصلى » .

وأبطله بأمرين : —

١ — الأول : أنه فاسد بالاستعارة ، فإنها دالة على معنى مقصود مع ملاحظة معناه الأصلى ، فيلزم على ما قاله دخولها فى الكناية .

٢ — الثانى : أنه يبطل بالحقيقة مع مجازها ، فإنه ما من مجاز يدل على معنى ، إلا وهو دال على حقيقته ، وفى هذا دخول أنواع المجاز فى الكناية وهذا باطل (١)

ثم ذكر تعريف ابن الأثير نفسه وهو « كل لفظ دال على معنى ، يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز » .

وأظهر فساده بثلاثة أمور :

١ — الأول : أن قوله : « معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز » خطأ لأن المعنى الواحد ، لا يجوز أن يكون حقيقة ، ومجازاً ، لاجتماع النفى والإثبات فيه ، لأنه يصير حقيقة ، ليس حقيقة ، وهو باطل ، بل الحق فى الكناية أنهما معنيان ، أحدهما حقيقة ، والآخر مجاز وظاهر كلامه أنهما معنى واحد .

٢ — الثانى : أن ما ذكره يبطل بالاستعارة فى مثل قولنا : « فلان أسد ، وبحر » فإن قولنا : أسد كما يدل بحقيقته على السبع ، فهو دال بمجازه على

---

(١) الطراز ص ٣٧١

الشجاعة فيجب دخوله في حد الكناية .

٣ ـ الثالث : أن قوله : « بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز » يدخل فيه التشبيه فإنه لابد فيه من اعتبار أمر جامع بخلاف الكناية ، فإنها لاتفتقر إلى ذكر الجامع ، فاعتبار قيد الوصف الجامع يدخلها في التشبيه ويخرجها عن حقيقتها (١) .

ثم عرف الكناية بقوله : (٢) : « هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين حقيقة ومجازاً من غير واسطة لا على جهة التصريح » .

ثم شرح التعريف فقال : « فقولنا : « اللفظ الدال » يحترز به عن التعريض فإنه ليس مدلولا عليه باللفظ ، وإنما هو مفهوم من جهة الإشارة والفحوى ، وقولنا : « على معنيين » يحترز به عما يدل على معنى واحد ، فإنه ليس كناية ، ويدخل فيه اللفظ المتواطىء كرجل وفرس ، واللفظ المشترك كقولنا : « قرء وشفق » فإنها دالان على معنيين ، وقولنا : « مختلفين » يخرج عنه المتواطىء ، فإن دلالته على أمور متماثلة ، وقولنا : « حقيقة ومجازاً » يحترز به عن اللفظ المشترك ، فإن دلالته على ما يدل عليه من المعاني على جهة الحقيقة لا غير ، وقولنا : « من غير واسطة » يحترز به عن التشبيه فإنه لابد فيه من أداة التشبيه إما ظاهرة وإما مضمرة ، وقولنا : « على جهة التصريح » يحترز به عن الاستعارة فإن دلالتها على ما تدل عليه من جهة صريحها ، إما من غير قرينة ، كدلالة الأسد على الحيوان ، وإما مع القرينة كدلالة الأسد على الشجاع ، فكلاهما مفهوم من جهة التصريح بخلاف الكناية ، فإن الجماع ليس صريحاً من قوله تعالى :

---

(١) الطراز ص ٣٧٣ .

(٢) الطراز ص ٣٧٤ .

« فأتوا حرثكم » ، وإنما هو مفهوم على جهة التبع .

ثم فرق بين الكناية والاستعارة بثلاثة أمور (١) : —

١ — الأمر الأول : الاستعارة عامة ، والكناية خاصة ، فكل استعارة كناية ، وليس كل كناية استعارة .

٢ — الأمر الثانى : الكناية يتجاذبها أصلان ، حقيقة ومجاز ، وتكون دالة عليهما معاً عند الإطلاق ، بخلاف الاستعارة .

فإن لفظ « الأسد » يستعمل فى « السبع » فيكون دالا عليه ، ثم يستعمل فى « الشجاع » فيكون دالا عليه ، فأما الكناية فهى دالة على الحقيقة والمجاز جميعاً عند الإطلاق .

٣ — الأمر الثالث : أن لفظ الاستعارة صريح ، ودلالتها على ما تدل عليه من الحقيقة والمجاز على جهة التصريح ، بخلاف الكناية فإن دلالتها على معناها المجازى ليس من جهة التصريح ، بل من جهة الكناية .

ثم فرق بين الكناية والتعريض من أوجه ثلاثة (٢) : —

١ — الوجه الأول : أن الكناية واقعة فى المجاز ومعدودة منه ، بخلاف التعريض فلا يعد منه ، وذلك من أجل كون التعريض مفهوما من جهة القرينة ، فلا تعلق له باللفظ ، لا من جهة حقيقته ، ولا من مجازه .

٢ — الوجه الثانى : أن الكناية تقع فى المفرد والمركب ، بخلاف التعريض فإنه لا موقع له فى باب اللفظ المفرد .

---

(١) الطراز ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .
(٢) الطراز ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

٣ ـــ الوجه الثالث : أن التعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز ، بخلاف التعريض فإن دلالته من جهة القرينة والإشارة ، ولاشك أن كل ما كان اللفظ يدل عليه فهو أوضح مما يدل عليه باللفظ ، وإن علم بدلالة أخرى .

ثم استدل على الفرق الثالث بما ورد عن علماء الشريعة في التفرقة بين صريح القذف وكنايته وتعريضه ، فقال : « ومن أجل هذا فرق علماء الشرع بين صريح القذف وكنايته وتعريضه ، فأوجبوا في الصريح من القذف الحد مطلقاً في قولك : يازاني وأوجبوا في كنايته الحد إذا نوى به في مثل قولك : يافاعلا بأمه ، ومفعولا به ولم يوجبوا في التعريض الحد في مثل قولك : « ياولد الحلال » وماذاك إلا لأجل أن التصريح والكناية يدلان على القذف من جهة اللفظ إما بالحقيقة أو بالمجاز .

ثم أورد للكناية كثيرا من الشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومنثور كلام العرب ومنظومه ، وبين ماتشتمل عليه هذه الشواهد من الكنايات وحللها تحليلا أدبيا رائعا (١) ، يدل على معرفة تامة بالأساليب العربية ، وخبرة واسعة بأسرار الكلام ودقائقه ، وأهدافه ومقاصده .

إلا أنني لاحظت عليه أن أكثر شواهده قد نقلها من المثل السائر لابن الأثير .

ودراسة العلوى للكناية دراسة تمتاز بالإحاطة والشمول ، وتقوم على العقل ، وتعتمد في أغلب الأحيان على الفلسفة والمنطق ، فقد اطلع على جهود القدماء ،

---

(١) انظر الطراز من ص ٤٠٠ إلى ص ٤٢٦

ثم تناولها بالنقد الفلسفى المنطقى ، ثم أدلى بدلوه فى النهاية ، فوضع للكناية تعريفا جامعا مانعا ، يدل على تمكنه من المنطق ، وخبرته التامة بحدوده ورسومه وقضاياه ، ثم فرق بين الكناية والاستعارة ، وهذا من جديده الذى لم يسبق إليه ، فلم نر أحدا من القدماء قد تعرض للفرق بينهما ، وإن كانت الفروق التى ذكرها تبدو عليها الصبغة المنطقية الفلسفية ، ثم فرق بين الكناية والتعريض ، وقد سبقه إلى ذلك ضياء الدين بن الأثير كما أشرت إلى ذلك أثناء حديثى عن الكناية عند ابن الأثير .

وإن من يتأمل دراسة العلوى للكناية يرى أنها لا تسير فى الاتجاه الأدبى الخالص ولا الكلامى البحت ، ولكنها تسير فى اتجاه جديد يمتزج فيه الاتجاهان الأدبى والكلامى ، وإن كان المنهج الكلامى أكثر وضوحا فى دراسته من المنهج الأدبى . فقد ركز كل اهتمامه على نقد تعريفات السابقين ، وأهمل الناحية الجمالية .

وبذلك نستطيع أن نقول إن الجديد الذى قدمه العلوى للكناية ينحصر فيما يلى :

١ — الفرق بين الكناية وبين الاستعارة .

٢ — وضع تعريف جديد للكناية يختلف عن تعريفات السابقين ، ويميزها تمييزا تاما عن جميع ما عداها من فن الصور البلاغية .

٣ — الاتجاه الذى سلكه فى دراستها اتجاه يكاد يكون جديدا فهو مزيج من الاتجاهين الأدبى والكلامى .

ويؤخذ عليه أنه لم يبين لنا الحسن منها والقبيح والجيد والردىء ، بل

اكتفى بنقل قواعد ابن الأثير التي أوردها في كتابه المثل السائر ولم يعلق عليها أو يتناولها بالتحليل والنقد الأدبي ، كذلك يؤخذ عليه أن تعريفه الذي ذكره في النهاية وإن كان جامعا مانعا ، إلا أنه أهمل أثر العاطفة في رسم الصورة الجمالية بالكناية .

الزركشي والكناية :

ثم تحدث عن الكناية « الزركشي » المتوفى سنة ٧٩٤ هـ في كتابه « البرهان في (١) علوم القرآن » فذكر أنها عند علماء البيان « أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيومئ به إليه ، ويجعله دليلا عليه ، فيدل على المراد من طريق أولى » .

ثم ذكر أقوال العلماء في أنها حقيقة أو مجاز فقال : « قال الطرسوسي (٢) في العمدة : « قد اختلف في وجود الكناية في القرآن ، وهو كالخلاف في المجاز ، فمن أجاز وجود المجاز فيه أجاز الكناية ، وهو قول الجمهور ، ومن أنكر ذلك أنكر هذا »

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « الظاهر أنها ليست بمجاز ، لأنك استعملت اللفظ فيما وضع له ، وأردت به الدلالة على غيره ، ولم تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له ، وهذا شبيه بدليل الخطاب في مثل قوله تعالى : « فلا تقل لهما أف » .

---

(١) انظر ص ٣٠١ من ج ٢ من وكتاب البرهان في علوم القرآن

(٢) هو نجم الدين إبراهيم ابن على الطرسوسي المتوفى سنة ٧٥٨ هـ ذكره صاحب كشف الظنون .

ثم ذكر أسباب (٣) الكناية ، وأجملها فيما يلى : —

١ — التنبيه على عظم القدرة كقوله تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة » كناية عن آدم عليه السلام.

٢ فطنة المخاطب كقوله تعالى فى قصة داود عليه السلام : « خصمان بغى بعضنا على بعض » فكنى داود بخصم على لسان ملكين تعريضاً ، وقوله تعالى فى قصة النبى ﷺ ، وزيد « ما كان محمد أبا أ . . . . من رجالكم » أى « زيد » ولكن رسول الله » وقوله تعالى . « فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة » فإنه كناية عن ألا تعاندوا عند ظهور المعجزة ، فتمسكم هذه النار العظيمة .

٣ — ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه كقوله تعالى : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ؟ ولى نعجة واحدة » فكنى بالنعجة عن المرأة » كعادة العرب فى أنها تكنى بها عن المرأة ، وقوله تعالى : « إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة » كنى بالتحيز عن الهزيمة ، وقوله تعالى : « إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم » كنى عن قبول التوبة عن الموت على الكفر لأنه يرادفه .

٤ — أن يفحش ذكره فى السمع فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع كقوله تعالى : « وإذا مروا باللغو مروا كراما » أى كنوا عن لفظه ، ولم يوردوه على صيغته ، وقوله تعالى : « ولكن لا تواعدوهن سرا » فكنى عن الجماع بالسر .

ثم علق على الآية الكريمة مبينا الحكمة والطاقة فى الكناية عن الجماع

---

(٣) انظر ص ٣٠٢ وما بعدها من ج ٢ من كتاب البرهان فى علوم القرآن .

بالسر فقال : « وفيه لطيفة أخرى لأنه (١) يكون من الآدميين فى السر غالبا ولا يسره ما عدا الآدميين إلا الغراب ، فإنه يسره ، ويحكى أن بعض الأدباء ، أسر إلى أبى حاتم كلاما فقال : « ليكن عندك أخفى من سفاد الغراب ، ومن الراء فى كـــلام الألثغ » فقال « : نعم يا سيدنا ، ومن ليلة القدر ، وعلم الغيب (٢) »

وقوله تعالى : « فالآن باشروهن » فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من إلتقاء البشرتين ، وقوله تعالى . « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » واللباس من الملابسة وهى الاختلاط والجماع ، وقوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه » كناية عما تطلب المرأة من الرجل ، وقوله تعالى : « وقالوا لجلودهم شهدتم علينا» أى لفروجهم ، فكنى عنها بالجلود ، وقوله تعالى فجعلهم كعصف ما كول ، كنى به عن مصيرهم إلى العذرة ، فإن الورق إذا أكل انتهى حاله إلى ذلك ، وقوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين » يريد « الزناة » وقوله تعالى : «ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » فإنه كناية عن الزنا ، وقيل أراد طرح الولد على زوجها من غيره ، لأن بطنها بين يديها ورجليها وقت الحمل .

٥ — تحسين اللفظ كقوله تعالى : « بيض مكنون » فإن العرب كانت من عادتهم الكناية عن حرائر النساء بالبيض ، قال امرؤ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها : تمتعت من لهو بها غير معجل

٦ — قصد البلاغة كقوله تعالى : « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام

---

(١) أى الجماع .

(٢) انظر تعليقنا على الكناية فى الآية الكريمة فى كتابنا « الإعجاز فى نظم القرآن » صـ ١١٠ .

غير مبين ، فإنه سبحانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن فى الترفه والتزين والتشاغل عن النظر فى الأمور ودقائق المعانى ، ولو أتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك ، والمراد نفى ذلك « أعنى الأنوثة » عن الملائكة ، وكونهم بنات الله تعالى الله عن ذلك .

٧ — قصد المبالغة فى التشنيع كقوله تعالى حكاية عن اليهود — لعنهم الله — « وقالت اليهود يد الله مغلولة » فإن الغل كناية عن البخل ، وقوله تعالى : « بل يداه مبسوطتان » كناية عن كرمه .

ثم أشار إلى لطيفة فى الآية الكريمة ، لا يدركها إلا أصحاب الأذواق السليمة العالمون بأساليب اللغة العربية ، الواقفون على دقائقها وأسرارها الفاهمون لأهدافها ومقاصدها ، المتذوقون لحلاوتها فقال : « وثنى اليد وإن أفردت فى الآية ليكون أبلغ فى السخاء والجود » .

٨ — التنبيه على مصيره كقوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب » أى جهنمى مصيره إلى اللهب ، وقوله تعالى : « حمالة الحطب » أى نمامة ، ومصيرها إلى أن تكون حطباً لجهنم .

هذا ما قدمه الزركشى — رحمه الله — للكناية ، وإن من يتأمل حديثه عن الكناية يرى أنه سلك فى دراستها الاتجاه الأدبى ، فكشف القناع عن أسبابها فى القرآن الكريم بأسلوب أدبى رائع ، وبطريقة سهلة ميسورة لا تكد الذهن ، ولا ترهق الفكر ، فهو يذكر السبب ، ثم يورد له الكثير من الشواهد القرآنية ثم يبين موضع الكناية فيها ، وفى بعض الأحيان يتعرض لبعض اللطائف الأدبية التى تكمن فى الكناية .

وهو فى دراسته للكناية قد تأثر بمن سبقه من العلماء ، وبخاصة الشيخ عبد القاهر الجرجانى والأديب الكبير ابن أبى الإصبع المصرى ، فتعريفه للكناية هو تعريف الشيخ عبد القاهر ، والأسباب التى ذكرها قد سبقه إليها ابن الإصبع فى كتابه « بديع القرآن » إلا أن الزركشى قد توسع فيها ، وأتى لها بالكثير من الشواهد القرآنية .

وقد امتازت دراسته للكناية بالإحاطة والشمول ، فقد ذكر أقوال العلماء فى كونها حقيقة أو مجاز إلا أنه لم يفصح عن رأيه فى النهاية وهذا مما يؤخذ عليه وامتازت دراسته أيضاً بالدقة والأمانة العلمية فهو يعترف بأنه استفاد من العلماء الذين سبقوه ، وينسب الأقوال إلى أصحابها فيقول عند تعريفه للكناية : هى عند علماء البيان . . . إلخ ويقول فى معرض حديثه عن الكناية هل هى حقيقة أو مجاز : قال الطرسوسى . . . . وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام » وينقل كلامهم بصدق وأمانة .

ونستطيع أن نجمل الجديد الذى قدمه الزركشى للكناية فيما يلى : —

١ — التوسع فى ذكر أسبابها فى القرآن الكريم .

٢ — الإكثار من الشواهد القرآنية .

ويؤخذ عليه أنه لم يكشف لنا عن بلاغة الكناية ، ولم يحدثنا عن أثرها فى الأساليب العربية ، وإن كانت الأسباب التى ذكرها فيها إشارة إلى هذا الأثر .

كما يؤخذ عليه أيضاً أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض ، ولكن من يتأمل حديثه عن الكناية ، وتطبيقه على بعض شواهدها يتبين له أنه لا يرى فرقا

بينهما ، بل هو يجعل التعريض قسما من أقسام الكناية ، ولونا من ألوانها ، يتضح هذا من تعليقه على قوله تعالى « خصمان بغى بعضنا على بعض » فقد قال معلقا على هذه الآية مبينا موضع الكناية فيها : « فكنى داود بخصم على لسان ملكين تعريضا » فتعليقه هذا يستفاد منه أن التعريض قسم من أقسام الكناية وهو في هذا يتابع السكاكي في جعله التعريض قسما من أقسام الكناية ، كما يؤخذ عليه أنه ذكر أقوال العلماء في الكناية هل حقيقة أو مجاز ، ولم يفصح عن رأيه، وهذا يتنافى وطبيعة الباحث المتعمق ، فمهمة الباحث لا تقف عند حد الجمع والنقل بل تتعدى هذا إلى الدراسة الواعية المستفيضة ، والمناقشة العلمية الهادفة المنصفة، والخروج في النهاية بالنتائج المفيدة ، وترجيح بعض الآراء على بعض بالأدلة والبراهين أو الخروج برأي جديد مؤيد كذلك بالحجج والبراهين .

أصحاب البديعيات والكناية

لقد اتجه بعض المتأخرين من علماء البلاغة في النصف الأخير من القرن السابع الهجري إلى صوغ الصور البلاغية في منظومات شعرية ليسهل حفظها مضمنين كل بيت من هذه المنظومات لونا من ألوان البديع ، ومن أجل هذا سموا بأصحاب البديعيات ، وكان لهم منهج خاص يهدف إلى الاستيعاب والتمكين من الحفظ ، ومن أشهر هؤلاء علي بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ هـ ، وصفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، وجابر الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٠ هـ ، وعز الدين الموصلي المتوفى سنة ٧٨٩ هـ ، وابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ ، وعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ هـ .

ولعل بديعية لم تظفر بالشهرة كما ظفرت بديعية ابن حجة الحموي السالفة الذكر ، وقد جعلها في مائة واثنين وأربعين بيتا ، استهلها بقوله :

لى فى ابتداء مدحكم ياعرب ذىسلم   براعة تستهل الدمع فى العلم

وهو فيها يقتدى بعز الدين الموصلى فى تضمين ألفاظ البيت ما يشير إلى الحسن البديعى الذى بناه عليه ، وصنف عليها شرحا مطولا سماه « خزانة الأدب » وقد طبع مراراً ونراه فى مقدمته لهذا الشرح ينوه بصفى الدين الحلى ، وبديعته وما اشتملت عليه من رقة ، بينما يصف بديعية عز الدين الموصلى بالثقل والتكلف الشديد ، ويقول : إنه لذلك انبرى يصنع بديعية ، تتضمن أبياتها الإشارة إلى المحسنات البديعية على طريقته ، وفى الوقت نفسه تجرى فيها الرقة والسلامة على مثال بديعية صفى الدين .

وإن من يقرأ بديعية ابن حجة ، وشرحها المطول المسمى بخزانة الأدب يرى أنها مع خزانتها كفيلة بتمثيل منهج أصحاب البديعيات فى الصور البلاغية التى منها الكناية ،ولذلك فإننى سأكتفى بذكر الكناية عند ابن حجة وموقفه منها ،وطريقة تناوله لها ليكون مثالا لهذا المنهج ، ودليلا على هذا المذهب

ابن حجة الحموى والكناية

قال ابن حجة (١) :

قالوا طويل نجاد السيف قلت : وكم   إنفاره ألسنة تكنى عن الكرم

هذا بيت بديعيته ، ويعلق عليه قائلا : الكناية هى الإرداف بعينه عند علماء البيان ، وإنما علماء البديع أفردوا والإرداف عنها .

---

(١) خزانة الأدب ص ٤٤٠

ثم عرفها بقوله (١) : « الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء إلى معنى هو ردفه فى الوجود فيومىء به إليه . ويجعله دليلا عليه » ثم وضح التعريف فقال : « مثال ذلك قولهم : « طويل النجاد كثير الرماد » يعنون بذلك أنه طويل القامة كثير القرى ، فلم يذكروا المراد بذكره الخاص به ولكن توصلوا إليه بمعنى آخر، هو ردفه فى الوجود ، ألا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد ، وإذا كثر القرى كثر الرماد .

ثم أوردها بعض الشواهد الشعرية ، ووصفها بالحسن ، من غير أن يذكر السبب فى ذلك فقال : « ومن أحسن الأمثلة على هذا النوع قول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل   أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ثم بين الكناية فى البيت فقال : « أراد أن يذكر طول جيدها ، فأتى بتابعه ، وهو مهوى القرط »

ومن شواهده التى أوردها ، ووصفها بالحسن والجودة قول ليلى الأخيلية :

ومخرق عنه القميص تخاله   وسط البيوت من الحياء سقيما

ثم بين الكناية فى البيت مثلما فعل فى البيت السابق فقال : « كنت عن الإفراط فى الجود بخرق القميص لجذب العفاة له عند ازدحامهم عليه لأخذ العطاء » .

ثم وضع مقياسا لبلاغة الكناية فقال (٢) : « والأبدع أن يكنى المتكلم

---

(١) خزانة الأدب ص ٤٤٠

(٢) خزانة الأدب ص ٤٤٠

عن اللفظ القبيح بالحسن » ثم استشهد على ذلك بآيات من القرآن ، فقال « والمجز فى ذلك قوله تعالى : « كانا يأكلان الطعام » كناية عن الحدث ، وقوله جل جلاله : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » يريد بذلك مايكون بين الزوجين » ثم عاق على هــــذين الشاهدين القرآنيين فقال : « وعلى الجملة لاتجد معنى من هذه المعانى فى الكتاب العزيز إلا بلفظ الكناية ، لأن المعنى الفاحش متى عبر المتكلم عنه بلفظه الموضوع له كان الكلام معيبا من جهة فحش المعنى ، ولهذا عاب قدامة على امرىء القيس قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتى شقها لم يحول

قال ـ أعنى ـ قدامة عيب هذا الشعر من جهة فحش المعنى ، والقرآن منزه عن ذلك ، ولو استعار امرؤ القيس لمعناه الفاحش لفظ الكناية لسلم من العيب ، وهذا القدر يعتقد على مثله »

ثم أورد للكناية شواهد من السنة الشريفة فقال : « وفى السنة النبوية من الكنايات مالا يحصى كقوله صلى الله عليه وسلم : « لايضع العصا عن عاتقه » كناية عن الضرب أو كثرة السفر ، »

هذا ما قدمه ابن حجة للكناية ، وإن من يتأمل جهده فى هذا الميدان لايرى فيه جديدا فهو عبارة عن جمع لآراء السابقين ، وشواهدهم ، ولذلك لم تتقدم أو تتطور الكناية على يديه ، بل وقف بها عندما وقف السابقون .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن أثر أصحاب البديعيات وعلى رأسهم ابن حجة فى الكناية خاصة ، والصور البلاغية بعامة أثر ضئيل ، لأن هدفه ـ كما أسلفنا

سكان الاستيعاب والتمكين من الحفظ ، فضلا عن أن هذا المنهج الذى سلكه أصحاب الملخصات يقوم على الاختصار الشديد ويحتاج معه إلى الشرح ، ولذلك فإنه أصاب الصور البلاغية بالتعقيد والجمود ، وأفقدها الكثير من حسنها وجمالها ، ورونقها وبهائها .

ملاحظات على الكناية عند القدماء

من خلال دراستى للكناية عند القدماء ، واطلاعى على جهودهم التى بذلوها ووقوفى على آرائهم ، وتعرفى على اتجاهاتهم ، لاحظت عدة أمور أجملها فيما يلى :

١ — لقد تطورت الكناية على أيدى القدماء من القصور إلى الغموض إلى الوضوح ، ومن العموم إلى التخصيص ، فقد كانت عند أبى عبيدة غامضة عامة ، فهى عنده ستر للمعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصلى ، واستمرت فى غموضها وعمومها عند ابن المعتز ، وأبى هلال ، وابن رشيق ، وابن سنان ، ثم خطت خطوات واسعة على يد الإمام عبد القاهر الجرجانى ، فأخذت صورة المصطلح العلمى ، حيث اشترط فيها العبور إلى المعنى المقصود باستعمال معنى غير مقصود ، ولكنه ردف له وتاليه ، ثم دخلت فى دائرة المجاز على يد ابن الأثير ، فقد حملها على جانبى الحقيقة والمجاز ، ثم خصصت تخصيصا تاما على يد الخطيب القزوينى ، وبذلك صارت جميع الدراسات حولها تدور فى إطار ما قاله الخطيب .

٢ — دراسة القدماء للكناية تكاد تكون فى أغلب الأحيان دراسة تقليدية ، فالمتأخر ينقل المتقدم فى التعريف ، والتقسيم ، وينقل شواهده ، بل وينقل تعليقاته على هذه الشواهد ، دون أن يأتى بجديد يستحق الذكر والتسجيل ،

وفى بعض الأحيان قد يتصرف ، ولكن تصرفه يكون محصورا فى الصياغة بأن يستبدل لفظا بآخر ، ومن أجل ذلك كان أثرهم فى التجديد ضئيلا ، باستثناء الشيخ عبد القاهر الجرجانى وابن الأثير فقد كانت دراستهما للكناية فيها الكثير من التجديد ، والابتكار فى الفكرة وفى التعريف ، وفى الشواهد وفى التناول والصياغة ، والأسلوب فعبد القاهر هو الذى وضع أسس الاتجاه الأدبى الذى سار عليه الكثيرون من العلماء فى تناولهم للصور البلاغية قديما وحديثا ، وقد امتازت دراسته بالعمق والتحليل والنقد الذى يهدف إلى إظهار ما فى الأساليب العربية من الحسن والجودة ، أو القبح والرداءة ، وابن الأثير قد وضع أسس اتجاه جديد فى الدرس البلاغى ، فقد مزج الاتجاهين الأدبى والكلامى واستخلص منهما اتجاها وسطا كان له أثر كبير فى إثراء الدرس البلاغى ، وتجديد شباب الصور البلاغية ، وإظهار محاسنها ومفاتنها ، بعد أن هرمت وشاخت على يد السكاكى الذى مزق أوصالها ، وشوه حسنها وجمالها ، وألبسها ثوبا قاتما من المنطق والفلسفة .

٣ — لم يكشف لنا أغلب القدماء عن أثر الكناية فى الأساليب العربية وهذا مما يؤخذ عليهم ، فالكناية تعبير فنى جميل ، وصورة بيانية رائعة ، تكسب المعنى قوة ولطافة والأسلوب رونقا وبهاء ، يسلكها الأدباء للتعبير عما يدور فى نفوسهم من الخواطر ، ويجيش فى صدورهم من المعانى ، فكان ينبغى للعلماء القدماء أن يكشفوا لنا عن حسنها وجمالها ، ومدى ماتضفيه على الأسلوب من الروعة واللطافة والقوة ، ولكنهم لم يفعلوا وأهملوا هذا الجانب الجمالى الذى هو المقصود من دراسة الصور البيانية فى الأساليب العربية .

٤ — خلت دراسة القدماء للكناية فى أغلب الأحيان من النقد الذى يقوم على الذوق والإحساس ويهدف إلى إظهار ماقى الأساليب من الحسن والجودة، أو القبح والرداءة عن طريق الموازنة بين الصور البلاغية فى الأساليب العربية والمفاضلة بينها على أسس نقدية سليمة ، ترتبط ارتباطا وثيقا بالنفس البشرية ، وتراعى فيها مقتضيات الأحوال ، وحسن الصياغة وجمال التعبير ، وحسن الأداء .

٥ — خلت دراسة القدماء كذلك من التحقيق والتمحيص ، ويظهر هذا واضحا فى عدم نسبة أكثر الشواهد إلى أصحابها ، ولعل السبب فى هذا هو التقليد الذى سيطر على الكثير منهم ، فأخذ المتأخر ينقل شواهد من سبقه ، ولايكلف نفسه مؤونة البحث عنها فى مصادرها ، ومن أجل ذلك فإن كثيرا من كتب القدماء المطبوعة تحتاج إلى تحقيق .

٦ — دراسة القدماء للكناية لم تتوفر فيها الأمانة العلمية ، فقد أولعوا بالتقليد ، فكان المتأخر ينقل عن المتقدم تعريفه وشواهده وأقسامه ، دون أن يشير إلى ذلك ، وهذا يتنافى مع الأمانة التى تقتضيها البحوث العلمية ، فالباحث أن ينتفع بأفكار من سبقه أو عاصره من العلماء ، ويستفيد من دراسته بشرط أن يشير إلى ذلك ، أما أن يترك الإشارة ، وينسب إلى نفسه ماليس له فهذا اعتداء ، وجحد للفضل ، ونكران للجميل ، وإخلال بواجب الأمانة العلمية .

٧ — دراسة القدماء للكناية بخاصة والصور البيانية بعامة ، لم تكن دراسة موضوعية منهجية تقوم على حسن التبويب والتنسيق ، وإنما كانت فى كثير من جوانبها دراسة مشوشة ، لاتهتم بجمع أطراف الموضوع الواحد فى موضع واحد، بل ترى للموضوع الواحد يذكر فى مواضع متفرقة ، وهذا يؤدى إلى تشتيت

ذهن القارىء ، ويصيبه بالملل والسآمة ، ويجعل محصوله العلمى ضئيلا ، وأثره قليلا ، وأكبر مثال على هذا كتابا عبد القاهر الجرجانى « الدلائل والأسرار » فإن الموضوع الواحد يتكرر فيهما فى أكثر من موضع ، حتى ليصبح من الصعوبة على القارىء أن يلم بأطراف الموضوع المتشعبة ، والمتناثرة فى صفحات الكتاب .

٨ — دراسة القدماء للكناية ، وسائر الصور البلاغية تكثر فيها الخلافات حول التعريفات والتقسيمات والتفريعات ، وهذه الخلافات قد جنت على الصور البلاغية ، فأطفأت أنوارها ، وأصابت أزهارها الجميلة بالذبول والجفاف ، ومزقت أوصافها ، وشوهت جمالها ، وأكبر مثال لهذا ما نراه فى كتاب « الطراز » العلوى ، فقد تتبع تعريفات السابقين ، ونقدها نقداً حكم فيه المنطق ، واعتمد فيه على الفلسفة ، وأهمل الناحية الجمالية ، وكم كنت أود أن يكرس جهده للناحية الجمالية التى هى المقصودة من دراسة الصور البلاغية ، ولكن لم يفعل ولعل السبب فى ذلك أن القدماء قد تأثروا بالفلسفة والمنطق ، فانعكس هذا التأثر على دراستهم للصور البلاغية ، فجاءت أساليبهم شاحبة باهتة ، وجاءت دراساتهم جافة قاتمة ، تكد الذهن ، وترهق الفكر .

٩ — لم يتعرض أحد من القدماء لدراسة الكناية فى القرآن الكريم دراسة مستقلة ، تكشف عن أثرها ، وفائدتها ، وسر جمالها وخلودها ، بل شغلوا أنفسهم بدراسات فلسفية عقيمة كالبحث فى كونها حقيقة أو مجازاً ، وأقاموا الدنيا وأقعدوها فى هذا الجانب ، وأكثروا من الجدل فى هذا الميدان ، وأهملوا الناحية الجمالية ، ويستثنى منهم فى هذه الناحية الشيخ الزركشى ؛ فقد كشف عن بعض فوائدها فى القرآن الكريم بأسلوب أدبى ، وبطريقة سهلة ميسورة ، ولكنه لم يكشف لنا عن سر جمالها وعظمتها فى القرآن الكريم .

١٠ — كذلك لم يتعرض أحد من القدماء للحديث عن الكناية فى القرآن الكريم من حيث الإعجاز هل هى معجزة أولا ؟ وحقا ما يؤخذ عليهم ، فإن الهدف من دراسة البلاغية هو الوقوف على سر الإعجاز فى القرآن الكريم ، فكان من الواجب على هؤلاء القدماء الأجلاء أن يدرسوا هذه الصور البلاغية فى القرآن الكريم من هذه الناحية دراسة وافية مستفيضة ولكنهم لم يفعلوا ويستثنى منهم فى هذه الناحية الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، فقد أشار إلى هذا إشارة جزئية حينما تعرض لبيان الاستعارة فى قوله تعالى : «واشتعل (١) الرأس شيبا » فقد أرجع السر فى جمال الاستعارة وشرفها إلى نظمها الذى هو فوق مقدور البشر ، ووقف عند هذه الجزئية ، ولم يجاوزها إلى غيرها من جزئيات البيان العربى ومن هنا ندرك أن عبد القاهر يرى أن الاستعارة — وهى صورة من صور البيان العربى — معجزة وأن إعجازها راجع إلى نظمها ، ولكنه — كما أسلفنا — وقف هذه عند الجزئية فقط (٢) .

١١ — سلك القدماء فى دراسة الكناية بخاصة والصور البلاغية بعامة أربعة اتجاهات هى :

١ — الاتجاه الأول : تغلب عليه الناحية الأدبية ، ويعتمد إلى حد ما على الذوق والإحساس ، ومن رجال هذا الاتجاه ابن المعتز ، وأبو هلال العسكرى وابن رشيق القيروانى والشيخ عبد القاهر الجرجانى .

---

(١) انظر ص ٨٩ ، ٨٠ من دلائل الإعجاز

(٢) لقد تحدث عن الإعجاز فى الصور البلاغية ، ووفيته حقه على قدر استطاعتى فى كتابى « الإعجاز فى نظم القرآن » فى ص ٩١ — ١١١ فليرجع إليه القارىء الكريم إن شاء .

٢ — الاتجاه الثانى : تغلب عليه الناحية الكلامية ، ويعتمد على العقل والمنطق ، ومن رجال هذا الاتجاه ، قدامة بن جعفر ، وابن سنان الخفاجى ، والسكاكى ، والخطيب القزوينى .

٣ — الاتجاه الثالث : هو مزيج من الاتجاهين الأدبى والكلامى ، وهذا الاتجاه يعتمد على الذوق والعقل معا ، ويهتم بالناحيتين الجمالية والعلمية ، ومن رجال هذا الاتجاه ابن الأثير ، وابن أبى الإصبع المصرى ، وعز الدين بن عبد السلام .

٤ — الاتجاه الرابع : اتجاه أصحاب البديعيات ، وهو اتجاه يكاد يكون امتدادا للاتجاه الكلامى ، إذ هو اتجاه يهدف إلى الاستيعاب والتمكين من الحفظ ، ويهمل فى أغلب الأحيان الناحية الجمالية .

الفصل الثانى

الكناية فى العصر الحديث

لقد تحدث فى الفصل الأول من هذا البحث عن الكناية عند القدماء من علماء البيان العربى . فكشفت النقاب عن آرائهم ، وأمطت اللثام عن جهودهم ، ثم سجلت فى نهاية الفصل ملاحظاتى على دراساتهم ، وفى هذا الفصل سأتحدث بعون الله وتوفيقه عن الكناية عند المحدثين ، وأعنى بهم علماء البيان فى العصر الحديث ، ومن أشهر هؤلاء العلماء ، الشيخ المرصفى ، والشيخ المراغى ، والشيخ ، على الجارم ، والدكتور أحمد بدوى ، والدكتور بدوى طبانة ، والشيخ أحمد الهاشمى .

المرصفى والكناية :

لقد تحدث حسين المرصفى عن الكناية فى كتابه « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » فعرفها بقوله :(١) « هى لفظ أريد به لازم معناه ، مع جواز إرادته أيضا ، فيكون المراد إفادتهما جميعا » ثم قسمها إلى ثلاثة أقسام على نحو ما فعل السكاكى ، ثم بين أنواعها من الإشارة والرمز ، والايماء ، مترسما فى ذلك خط السكاكى ، ثم أورد بعض الشواهد الأدبية ، وعلق عليها بأسلوب أدبى رائع ، موضحا موضع الكناية ، كاشفا عن حسن تصويرها ، وروائها .

ملاحظاتى على الكناية عندالمرصفى :

١ — لقد ترسم الشيخ المرصفى ـ رحمه الله ـ خطا السابقين ، واقتفى أثرهم فى دراسته للكناية فتعريفه لها تعريف الخطيب القزوينى ، وتقسيماته هى

---

(١) الوسيلة الأدبية للعلوم العربية حـ٢ص٢٦

تقسيمات السكاكى ، والأنواع التى ذكرها ، وجعلها أقساما للكناية قد سبقه إليها السكاكى وشواهده التى أوردها هى شواهد السابقين ، وليس له فيها من جديد يذكر سوى تعليقه عليها بأسلوبه الأدبى الرائع الأخاذ .

٢ — امتازت دراسته للكناية بتجنب الخلافات التى كثيرا ما كان يثيرها السابقون .

٣ — كما امتازت طريقته بحسن العرض وجمال الصياغة .

وبذلك نستطيع أن نحصر جديده الذى قدمه للكناية فى ثلاثة أمور :

(أ) تجنب الخلافات التى كثرت فى كتب السابقين ، وتميزت بها دراستهم .

(ب) تعليقه على شواهد السابقين بأسلوب أدبى رائع .

(ﺣ) الكشف عن جمال الكناية وبراعتها بطريقة أدبية مشوقة .

الهاشمى والكناية :

تحدث المرحوم أحمد الهاشمى عن الكناية فى كتابه « جواهر البلاغة » فعرفها بقوله (١) : « هى لفظ أريد به غير معناه الذى وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلى لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته » ثم أورد لها كثير من الشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومنظوم كلام العرب ومنثوره ، ثم علق على هذه الشواهد ، مبينا موضع الكناية فيها فمن شواهده القرآنية قوله تعالى : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » كناية عن النميمة ،

---

(١) جواهر البلاغة ص ٣٤٦

وقوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » كناية عن السفينة ، ومن شواهده الشعرية التي أوردها قول الحضرمي :

قد كان تعجب بعضهن براعتي ... حتى رأين تنحنحي وسعالي

كناية عن كبر السن .

ومن شواهد النثرية التي أوردها ما روى أن خلافا وقع بين بعض الخلفاء ، ونديم له في مسألة فاتفقا على تحكيم بعض أهل العلم فأحضر ، فوجد الخليفة مخطئا فقال : القائلون بقول أمير المؤمنين أكثر « يريد الجهال » ومن شواهده النثرية أيضا قول العرب في أمثالهم : « قلبت له ظهر المجن » كناية عن تغيير المودة .

ثم استطرد في سرد ما ورد عن الأدباء من الكنايات اللطيفة في شتى المعاني والأغراض . مما يدل على سعة اطلاعه ، وطول معاشرته لأساليب اللغة العربية .

ثم ذكر تقسيمات الكناية ، مترسما في ذلك خطا السكاكي مع الإكثار من الشواهد ، ثم أماط اللثام عن بلاغة الكناية بما لا يخرج عما قاله القدماء من علماء البيان .

ومن هنا نستطيع أن نقول منصفين : إن الهاشمي ـ رحمه الله قد ترسم خطا السابقين في دراسته للكناية فتعريفه ليس فيه جديد يثير في النفس دافعا إلى معرفته وشوقا إلى استجلاء جماله ، وإنما هو نسخة مكررة من تعريفات السابقين ، وتقسيماته تقسيمات السكاكي ، وليس له من جديد سوى الإكثار من الشواهد وتجنب الخلافات ، وحسن العرض ، وجمال الصياغة .

المراغى والكناية .

تحدث الشيخ مصطفى أحمد المراغى ـ رحمه الله ـ عن الكناية فى كتابة « علوم البلاغة » فعرفها لغة بقوله : « الكناية لغة أن تتكلم بشيء ، وتريد غيره ، وقد كنوت بكذا عن كذا ، أو كنيت ، إذا تركت التصريح به » وهو فى ثبات معناها اللغوى يسلك منهج القزوينى القدماء ، بل يستشهد على أصل اشتقاقها ، بما استشهدوا به ، ثم يورد تعريفها الاصطلاحى فيقول :

« وفى الاصطلاح تطلق على معنيين » : —

(١) المعنى المصدرى الذى هو فعل المتكلم ، أعنى ذكر اللفظ الذى يراد به لازم معناه مع جواز إرادته معه .

(٢) اللفظ المستعمل فيما وضع له ، لكن لا ليكون مقصودا بالذات بل لينتقل منه إلى لازمه المقصود لما بينهما من العلاقة واللزوم العرفى .

ثم يذكر تقسيماتها مترسما فى ذلك خطا الشيخين السكاكى والخطيب القزوينى ثم يستشهد لهذه الأقسام بما استشهد به السابقون ، ثم يعود فيقسمها إلى حسنة ، وقبيحة ، ثم يفرق بينهما بأن الحسنة ماجمعت بين الفائدة ولطف الإشارة ، والقبيحة ما خلت عن الفائدة المرادة من الكناية ، ثم يستشهد لهما بشواهد السابقين ، ثم يكشف التقارب عن بلاغة الكناية بما لا يخرج عما ذكره السابقون من علماء البيان .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الشيخ المراغى ـ رحمه الله ـ لم يقدم للكناية جديدا يستحق الذكر والتسجيل : فلقد ترسم ـ كغيره من علماء عصره ـ خطا السابقين ، واقتفى أثرهم وقلدهم فى كل شىء ، فقد عرفها بتعريفين لم يخرجا عن تعريفى عبد القاهر والسكاكى ، ثم نقل عن السكاكى جميع تقسيماتها بصدق

وأمانة ، ثم استشهد لهذه الأقسام بشواهد السابقين ، ثم نقل عن ابن الأثير تقسيمها إلى حسنة ومعيبة ، وعندما تكلم عن بلاغتها نقل ما قاله الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، ولم يزد شيئا ، وكل ما فعله الشيخ المراغى هو حسن التنسيق والتبويب والبعد من الخلافات التى أولع بها السابقون .

الجارم وأمين والكناية

تحدث الأستاذان المرحوم على الجارم ، والأستاذ مصطفى أمين عن الكناية فى كتابيهما « البلاغة الواضحة » بطريقة جديدة لم يسبقا إليها ، فبدآ بعرض كثير من النصوص (١) الأدبية قرآنية ، وشعرية ، ونثرية ، ثم بحثا هذه النصوص بحثا دقيقا من حيث اللفظ والمعنى ، ثم بينا مواضع الكناية فيها ، وكشف عن حسنها وبراعة تصويرها ثم وضعا تعريفا لها هو « الكناية لفظ أطلق ، وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى » ثم قسما الكناية إلى ثلاثة أقسام .

١ — كناية عن صفة .

٢ — كناية عن موصوف .

٣ — كناية عن نسبة .

مترسمين فى ذلك خطا السكاكى ، ثم تحدثا عن بلاغة الأسلوب الكنائى وأثره فى حسن الصورة ، وتصوير المعنى .

وحصرا بلاغة الكناية فيما يلى : —

١ — الكناية تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفى طيها برهانها .

٢ — تبرز لك المعانى المجردة فى صورة المحسات .

٣ — تمكنك من أن تشفى غلتك من خصمك من غير أن تجعل له سبيلا عليك ودون أن تخدش وجه الأدب .

(١) البلاغة الواضحة ص ١٢٣ .

٤ — التعبير عن القبيح بما تسوغ الآذان سماعه .

ثم أوردا كثيراً من الشواهد الأدبية لهذه الأسرار البلاغية ، وعلقا عليها مبينين ما تضمنته هذه الشواهد من مظاهر الجمال ، والسحر الحلال بأسلوب أدبي رائع أخاذ .

ملاحظاتي على الكناية عند الجارم وأمين

من خلال دراستي الكناية عند هذين الأستاذين الكبيرين لاحظت عدة أمور هي : —

١ — لقد ابتكرا طريقة جديدة في تناول الدرس البلاغي فيها الكثير من المزايا التي رفعت من شأن البلاغة العربية ، وأخذت بيدها نحو التقدم والرقي ومن هذه المزايا ما يلي : —

(أ) إن هذه الطريقة تعمل على غرس ملكة البلاغة في نفس القارىء ، وتطبعه على الذوق العربي ، وتبصره بأسرار الكلام البليغ ، وما فيه من ضروب الحسن وبدائع البيان .

(ب) إنها تعمل على تربية ملكة الذوق الصحيح .

٢ — أكثرا من الشواهد الأدبية ، وحللاها تحليلا أدبيا رائعا ، وأوقفا القارىء على مواطن الحسن والجمال فيها .

٣ — تجنبا الخلافات التي أكثر منها السابقون ، واتسمت بها دراساتهم .

٤ — ركزا جهودهما على الناحية الجمالية التي هي المقصودة من دراسة الصور البلاغية .

٥ — خلت دراستهما فى أكثر جوانبها من الفلسفة والمنطق .

٦ — مع ابتكارهما لمنهج جديد فى تناول الدرس البلاغى ، إلا أنهما لم يسلما من سيطرة المنهج القديم عليهما ، فقد تعرضا لتقسيمات السابقين ، وأثبتاها فى هامش الصفحات فقد أثبتا أن الكناية إن كثرت وسائطها سميت تلويحاً ، وإن قلت وخفيت سميت رمزاً ، وإن قلت الوسائط ، ووضحت أو لم تكن سميت إيماء وإشارة كما أنهما جعلا التعريض نوعاً من الكناية .

الدكتور أحمد بدوى والكناية

تحدث الدكتور أحمد بدوى ـ رحمه الله ـ عن الكناية فى كتابه «الأسس النقدية لدى علماء العربية» فكشف النقاب عن منزلتها فى البيان العربى، وأثرها فى الأسلوب فذكر(١) أنها لون من ألوان الخيال ، عنى بها نقاد العرب ، وعرفوا لها مكانتها فى الإيضاح والتأثير ، فإن الشعراء يذهبون أحياناً مذهب الكناية والتعريض ، وهم إذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسن تملأ الطرف ، ودقائق تعجز الوصف ، ورأيت هناك شعراً شاعراً ، وسحراً ساحراً ، وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المفلق والخطيب المصقع . ثم ذكر أن العرب وضعوا الكناية فى مكان أرفع من التصريح ، وعلل ذلك بأن الأديب فى الكناية يقرن دعواه بإثبات أمر من الأمور ، بما يجعل النفس ترتاح إلى إثباته، وتطمئن إلى هذا الإثبات ؛ إذ كأنه أتى ببرهان على دعواه ، وهذا واضح عندما يكون مراد الشاعر إثبات صفة أو نسبة ، فإذا كنى عن ذات اختار أنسب ما فى هذه الذات ، وما له دخل فى الحكم — فجعله كناية عنه ، اقرأ قول الشاعر :

فبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حلت

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب ط الثانية ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ .

فنجده قد تلطف فى وصف هذه المرأة بالعفة ، فذكر ما تطمئن به النفس إلى حسن سلوكها ، وعفة نفسها ،وهو أن الناس لا يتخذونها مضغة فى أفواههم ولا يتركون اسم بيتها مقترنا بما يسىء إلى سمعتها .

ثم بين أن نقاد العرب عابوا الكناية ، إذا كان بين المعنيين وسائط كثيرة بحيث يغمض الشىء المطلوب ، ولا يظهر بسرعة ، كما كرهوا الكنايات التى تبعث فى المتلقى آثاراً غير رفيعة كقول المتنبى :

إنى على شغفى بما فى خمرها   لأعف عما فى سراويلاتها

فهذه كناية عن النزاهة والعفة ، إلا أن الفجور أحسن منها ، وما ذلك إلا لنزول قدرها ، وسوء تأليفها .

ودراسة الدكتور أحمد بدوى — رحمه الله — للكناية دراسة نقدية تحليلية تهدف إلى الكشف عما فى الأساليب العربية من الحسن والجمال ، أو القبح والرداءة ، وهذه الدراسة قد سبقه إليها القدماء ، ومن هنا نستطيع أن نقول : إن أثر الدكتور بدوى فى الكناية ضئيل فليس له من جديد سوى حسن العرض ، وجمال الصياغة .

الدكتور بدوى طبانة والكناية

تحدث الدكتور بدوى طبانة عن الكناية فى كتابه « علم البيان » فقدم لدراستها بالكلام عن موقعها بين الفنون الأدبية أبان فى هذا التقديم أن الأدب تعبير قولى هدفه الإيضاح فى نقل المعانى والأفكار إلى الناس ممتازة فى الفكر ، سامية فى التعبير ، كما أوضح أن غاية الأديب من أدبه التى يرمى إلى تحقيقها التأثير والإقناع بالفكرة ، وصدق الإحساس حتى تحدث المشاركة بين

سامعى أو قارئى أدبه ، وحتى تكون تلك المشاركة مظهراً من مظاهر تقديره ، ولا شك أن هذه الغاية متحققة فى جميع الصور البيانية ، وقد يظن ظان أن أسلوب الكناية من بين الصور البيانية مخالف لما عليه الأسلوب البيانى ، فأبان الهدف من دراسة الكناية ، وكيف أنها لا تتعارض مع الوضوح المطلوب من الكلام ، بأنه لم يقصد بهذا الوضوح التبذل بالكلام ، بل لابد للانسان أن يجيل فكره فى صورة الكناية إلى أن يفهم هدف المتكلم ، وإنما المراد الوضوح الذى يكون معه إعمال الفكر ، وتحريك الخاطر لطلب المعانى .

ثم فرق بينها وبين التعقيد ، بأنها ما كان معناها إلى القلب أسرع من لفظها إلى السمع ، ومن هنا يبدو أثر الكناية أو التعريض أو الرمز أو الإيماء فى جمال ما تنبه من ملكات ، وما تستثير من الأذواق ، ولا يقصد بالخفاء هنا ذلك الذى يصل إلى حد التعمية التى تتعبك ، ثم لا تجدى عليك ، وتؤرقك ، ثم لا تروق (١) الخ .

ثم كشف النقاب عن بلاغة الكناية فقال : « وأسلوب الكناية فى البلاغة العربية من أهم الأساليب التى يلجأ إليها الأدباء ليحققوا الغاية التى ذكرناها فى هذا الكلام من محاولة إخفاء المعنى الصريح ذلك الإخفاء الذى يجنبهم كثيراً مما يخشون التصريح به ، أو مما لا يرضونه لعباراتهم من الفحش والابتذال ، وهو فى الوقت نفسه يستثير الشوق فى نفس القارىء والسامع ، فيجد كل منهما المتعة الفنية التى يصل إليها بعد البحث والتأمل ، والإدراك ، فيظل أثرها باقياً فى نفسه ، ويبقى الاستمتاع بها وقتاً طويلا (٢) » .

---

(١) انظر ص ١٧٣-١٧٦ من علم البيان للدكتور بدوى طبانة .

(٢) علم البيان ص ١٧٦ .

الفصل الثالث

صور الأسلوب الكنائي

تبلورت جهود البلاغيين في نهاية المطاف عن تفريع الأسلوب الكنائي، بحسب المطلوب، – كما يرى السكاكي – إلى ثلاثة أقسام. واستمرت هذه الأقسام دستور الايحيد عنه البلاغيون إلا نادرا.

وما هي الأقسام:

١ – القسم الأول: الكناية المطلوب بها صفة (١).

وهي نوعان: قريبة، وبعيدة، والقريبة نوعان: واضحة وخفية.

أولا: القريبة:

(أ) القريبة الواضحة: وهي التي ينتقل منها إلى المطلوب من أقرب لوازمه إليه من غير واسطة، وبسهولة ويسر لوضوح التلازم بين المعنى الحقيقي والمعنى الكنائي:

ومن شواهدها قول الحماسي:

أبت الروادف والثدي لقمصها مس البطون، وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشي تناوحت نبهن حاسدة، وهجن غيورا

فقد كنى بالبيت الأول عن نهود ثديها، وكبر ردفيها، وضمور خصريها

---

(١) المراد بالصفة: المعنى القائم بالغير، لاخصوص النعت النحوي كالشجاعة والجبن، والكرم والبخل، والطول، والقصر، والشرف والخسة والرفعة، والضعة، وما شاكل ذلك...

حيث أطلق منع الروادف والثدى قمصها من أن تمس الظهر أو البطن : لينتقل منه إلى المراد فى سهولة ويسر لوضوح التلازم بين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى.

وقول عمر بن أبى ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل ... أبوها وإما عبد شمس وهاشم (١)

فقوله : « بعيدة مهوى القرط » كناية عن طول العنق ، وهى كناية قريبة واضحة .لأن الانتقال من : بعد مهوى القرط : إلى طول العنق ، يحصل بسهولة ويسر ، ومن غير حاجة إلى تأمل وفكر .

(ب) القريبة الخفية : وهى التى ينتقل منها إلى المطلوب من أقرب لوازمه إليه من غير واسطة مع تأمل وإعمال فكر وروية لخفاء التلازم بين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى .

ومن شواهدها قول الشاعر :

عريض القفا ميزانه فى شماله ... قد انحص من حسب القراريط شاربه(٢)

يصف رجلا بالغباوة ، على طريق الكناية ، لأن « عرض القفا » كناية عن الحمق ، و « ميزانه فى شماله » كناية عن البله ، و « انحص من حسب القراريط شاربه » كناية عن البلادة فهذه ثلاث كنايات قريبة خفية، أما كونها قريبة : فلأن الانتقال من المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى المراد لايتوقف على وسائط ، وأما كونها خفية : فلأن الانتقال فيهامن المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى يتوقف على تأمل وإعمال فكر وروية ، فالانتقال من عرض القفا إلى

---

(١) القرط : حلى الأذن ، ومهواه : مسقطه من المنكب

(٢) انحص : انحسر شاربه لكثرة مايعض على شفته عند الحسب والعد .

الحق ، ومن كون ميزانه فى شماله : إلى البلاهة ، ومن انحسار شاربه إلى البلادة لا يفهمه كل أحد ، وإن فهمه أحد فبعد بذل مجهود فكرى ، ومرجع ذلك إلى أنه لم يشتهر استعمال هذه التراكيب فى هذه المعانى عند كل الناس .

ثانيا : البعيدة : هى التى يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى بواسطة واحدة أو أكثر .

فن شواهد الأولى(١) : ما رواه البخارى ومسلم عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » عمدت إلى عقالين ، أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتى . قال : فجعلت أنظر إليهما . فلما تبين لى الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فأخبرته بالذى صنعت فقال : « إن كان وسادك لعريضا » .

والشاهد فى قوله — عليه الصلاة والسلام — « إن كان وسادك لعريضا » فهو كناية عن قلة فهمه ، وبين المعنى الحقيقى ، والمعنى الكنائى المراد : واسطة واحدة ، إذ إنه ينتقل من عرض الوسادة إلى عرض القفا ، ومن عرض القفا إلى المعنى الكنائى المراد .

ومن شواهدها أيضا قول أبى تمام :

فإن أنا لم يحمدك عنى صاغرا ... عدوك فاعلم أننى غير حامد

يقول لممدوحه : إن لم أكن أجيد القول فى مدحك إلى الحد الذى يرغم عدوك على حفظه وترديده ، فلا تعتبرنى مادحا لك بما أنظم فيك .

---

(١) أى التى يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى بواسطة واحدة

فقد كنى بحفظ عدو ممدوحه مدحه فيه عن : إجادة شعره في مدحه ، فبين المعنى الحقيقي والمعنى الكنائي واسطة واحدة ، إذ إنه ينتقل من : حفظ عدو ممدوحه قول الشاعر فيه إلى : إعجابه بقوله ، وينتقل من إعجابه بقوله إلى : إجادة شعره فيه ..

ومن شواهد الثانية (١) قول نصيب :

لعبد العزيز على قومه ... وغيرهم منن ظاهرة
فبابك أسهل أبوابهم ... ودارك مأهولة عامر
وكلبك آنس بالزائر ... ين من الأم بالابنة الزائرة

فإنه ينتقل من وصف كلبه بما ذكر إلى أن الزائرين معارف عنده ، ومن ذلك إلى اتصال مشاهدتهم ليلا ونهارا ، ومنه إلى لزومهم بابه ، ومنها إلى وفور إحسانه إلى الخاص والعام وهو المقصود .

وقول ابن هرمة :

لا أمتع العوذ بالفصال ولا ... أبتاع إلا قريبة الأجل (٢)

فإنه ينتقل من عدم امتاع العوذ بالفصال إلى : نحرها ، ومنه إلى : كثرة الآكلين ، ومنها إلى : كثرة الضيوف ، ومنها إلى الكرم .

---

(١) أي التي يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقي إلى المعنى الكنائي بأكثر من واسطة .

(٢) العوذ ، بضم العين : جمع عائذ وهي الناقة الحديثة النتاج . الفصال بكسر الصاد : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، أي فطم . أبتاع : أشترى

وقول الآخر :

وما يك فيّ من عيب فإني جبان الكلب مهزول الفصيل

فإن الذهن ينتقل من جبن الكلب عن الهرير في وجه من يقصد دارا هو مقيم على حراستها والعس دونها مع أن ذلك ليس من طبعه ، إلى أنه قد دام زجره وتأديبه حتى تغير عن مجرى عادته ، ثم إلى استمرار موجب نباحه، وهو اتصال مشاهدته وجوها إثر وجوه ؛ ومن ذا إلى كونه ملجأ للقاصي والداني ، ومن ذا إلى أنه مشهور بحسن قرى الأضياف .

وكذا ينتقل من هزال الفصيل إلى فقد الأم ، ومن ذا إلى قوة الداعي إلى نحرها ، مع كمال عنايتهم بالنوق خصوصا المتالي (١) منها ، ومن هذا إلى صرفها إلى الطبائخ ، ومن ذا إلى أنه مضياف .

٢ — القسم الثاني : الكناية المطلوب بها موصوف :

والكناية في هذا القسم نوعان : قريبة ، وبعيدة

فالقريبة : هي أن يتفق في صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين، عارض فتذكرها متوصلا بها إلى ذكر الموصوف . كقول الشاعر

الضاربين بكل أبيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان (٢)

فقد كنى « بمجامع الأضغان » عن القلب

وقول شوقي في محاسن اللغة العربية :

---

(١) المتالي : من أتلت الناقة : إذا تلاها ولدها . (٢) الأبيض : المراد به السيف ، مخذم على وزن منبر : القاطع ، الأضغان : جمع ضغن بكسر الضاد وسكون الغين وهو الحقد .

إن الذى ملأ اللغات محاسنا ... جعل الجمال وسره فى الضاد

فقد كنى : بـ « الضاد » عن اللغة العربية ، لأن حرف الضاد من خصائصها التى تدل عليها .

وقول المتنبى يمدح سيف الدولة لما ظفر ببنى كلاب :

فمساهم وبسطهم حرير ... وصبحهم وبسطهم تراب

ومن فى كفه منهم قناة ... كمن فى كفه منهم خضاب

والشاهد فى البيت الثانى ، فقد كنى بمن يحمل قناة عن الرجل ، وكنى بمن فى كفه خضاب عن المرأة . فهو يريد أنهم خافوا هيبة سيف الدولة حتى صار الرجل منهم كالمرأة .

وقول أبى العلاء المعرى :

سليل النار دق ورق حتى ... كأن أباه أورثه السلالا

فكنى بقوله : « سليل النار » عن السيف ، لأن للنار شأنا كبيرا فى صنعه فكأنها ولدته ، وأنتجته .

وقول أبى نواس فى الخمر :

ولما شربناها ودب دبيبها ... إلى موطن الأسرار قلت لها قفى

فقد كنى : بـ « موطن الأسرار » عن القلب

وقول آخر يرثى رجلاً مات بعلة فى قلبه :

ودبت له فى موطن الحلم علة ... لها كالصلال الرقش شر دبيب (١)

(١) الصلال . جمع صل بكسر الصاد وهى الحية التى يسرى سمها فى اللديغ . بحيث لا ينفع فيه المصل ، ومعنى الرقش أن فيها نقط سواد وبياض ، وهى من أشد الحيات إيذاء .

فقد كنى بـ : «موطن الحلم» عن القلب

وقول الآخر :

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى ... مشغوفة بمواطن الكتمان

فقد كنى : بـ «مواطن الكتمان» عن القلوب لأنها مواضع الأسرار الخفية.

والبعيدة : هي أن يتكلف المتكلم اختصاصها بأن يضم إلى لازم لازما وآخر حتى يلتئم مجموعا وصفيا مانعا من دخول كل ماعدا مقصوده .

كأن يقول في الكناية عن الإنسان : « هو حي مستوى القامة عريض الأظفار » فهذه المعاني : « حي مستوى القامة ، عريض الأظفار » مجتمعة تعتبر مختصة بالإنسان ، لاتوجد فيما عداه ، فينتقل منها إليه .

وشرط البلاغيون في هاتين الكنايتين الاختصاص بالمكنى عنه ، وذلك بكون المعنى المكنى به مختصا بالمكنى عنه ليحصل الانتقال إلى المعنى المقصود.

٣ — القسم الثالث : الكناية التي يطلب بها تخصيص الصفة بالموصوف:

وهي التي يسمونها « كناية النسبة » ، ويراد بها إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه ومن شواهدها قول زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى ... في قبة ضربت على ابن الحشرج

فإنه أراد أن يثبت اختصاص ابن الحشرج بهذه الصفات أي ثبوتها له ، وأراد ألا يصرح بإثبات هذه الصفات له ، فجعلها في قبة ، وجعلها مضروبة عليه فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية .

وقول الشنفرى الأزدي في وصف امرأة بالعفة :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها ... إذا مابيوت بالملامة حلت

فإنه لما أراد أن يبين عفافها ، وبراءة ساحتها عن التهمة ، وكمال تجافيها عن أن تلام بنوع من الفجور على سبيل الكناية نسبها إلى بيت يحيط بها ، تخصيصا للنجاة عن اللوم بها .

وقول المتنبى فى مدح كافور :

إن فى ثوبك الذى المجد فيه ‏ ‏ ‏ لضياء يزرى بكل ضياء

حيث أراد أن يثبت المجد لكافور ، فترك التصريح بهذا ، وأثبته لماله تعلق به وهو الثوب بطريق الكناية .

وقول الكميت الأسدى يمدح أبان بن الوليد البجلى :

يصير أبان قرين السما ‏ ‏ ‏ ح والمكرمات معا حيث صارا

وقول أبى نواس يمدح الخصيب أمير مصر :

فما جازه جود ولا حل دونه ‏ ‏ ‏ ولكن يصير الجود حيث يصير

ففى البيت كنايتان أريد بهما اختصاص الممدوح بالجود وقصره عليه ، إحداهما فى قوله : « فما جازه جود ولا حل دونه » والثانية فى قوله : « ولكن يصير الجود حيث يصير » وقد تلطف أبو نواس فى إثباتهما أحسن تلطف ، وصاغهما أدق صياغة ، حيث نكر الجود فى الشطر الأول ، فنفى جميع أفراد الجود ، لأن النكرة فى سياق النفى تعم ، ثم نفى أن يجوز ، ويتعدى ممدوحه ويحل دونه ، فيكون متوزعا يقوم منه شىء بهذا ، وشىء بذاك ، وحيث لا يوجد شىء من الجود عند غير الممدوح ، فقد ثبت له الجود كله ، واختص به ، ثم تراه يعرف الجود فى الشطر الثانى باللام المفيدة للعموم ، ثم يحله فى ذات المكان الذى يحل فيه الممدوح ، وبذلك يقيد اختصاصه به على أبلغ وجه وآكده .

أقسام الكناية عند ابن الأثير

لقد نحا ابن الأثير فى تقسيم الأسلوب الكنائى نحوا آخر إذ بنى تقسيمه على الوسائط التى توصل إلى المطلوب من القرب والبعد والقلة والكثرة وجعلها على ضربين(١) :

الضرب الأول : ما يحسن استعماله :

والضرب الآخر : ما يقبح استعماله ، وهو عيب فى صناعة التأليف .

فأما الضرب الأول — الذى يحسن استعماله — فإنه ينقسم إلى أربعة أقسام :

١ — التمثيل :

وهو التشبيه على سبيل الكناية ، وذلك أن تراد الإشارة إلى معنى ، فتوضع ألفاظ تدل على معنى آخر ، وتكون تلك الألفاظ ، وذلك المعنى مثالا للمعنى الذى قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه . كقولنا : « فلان نقى الثوب » أى منزه عن العيوب .

وللكلام بها فائدة لا تكون لو قصدت المعنى بلفظه الخاص ، وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصور للمدلول عليه ؛ لأنه إذا صور نفسه مثال ما خوطب به كان أسرع إلى الرغبة فيه ، أو الرغبة عنه . فمن بديع التمثيل قوله تعالى : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » فأما تمثيله الاغتياب بأكل إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم الأخ ، ولم يقتصر على لحم الأخ حتى جعله ميتا ، ثم جعل ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة — وهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة المعنى الذى وردت لأجله ،

---

(١) انظر الجامع الكبير لابن الأثير — مطبعة المجمع العلمى العراقى بغداد سنة ١٩٥٦ م ص ١٥٧ .

فشديد المناسبة جدا ، وذلك لأن الاغتياب إنما هو ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم ، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم فيه تمزيق لامحالة ، وأما قوله : « لحم أخيه » فلما في الاغتياب من الكراهة ، لأن العقل والشرع معاقد أجمعا على استكراهه ، وأمرا بتركه والبعد عنه ، ولما كان كذلك جعل بمنزلة لحم الأخ في كراهته ، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله ، إلا أنه لايكون مثل كراهته لحم أخيه فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة لا أمد فوقها ، وأما قوله : « ميتا » فلأجل أن المغتاب لايشعر بغيبته ولايحس . وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها ، مع العلم بأنها من أذم الخلال ، ومكروه الأفعال عند الله تعالى والناس ، فتمزيق العرض مثل أكل الإنسان لحم من يغتابه ، لأن ذلك تمزيق على الحقيقة وجعل بمنزلة لحم الأخ لأجل المبالغة في الكراهة و « الميت » لامتناع الإحساس به ، واتصل ما هو مستكره بالمحبة ، لما في طبع الأنفس من الشهوة للغيبة والميل إليها . ومن هذا القسم قوله تعالى : « ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » فمثل البخل بأحسن تمثيل ، لأن البخيل لايمد يده بالعطية كالمغلول الذي لايستطيع أن يمد يده . وإنما قال : « ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك » ولم يقل . « ولا تجعل يدك مغلولة » من غير العنق ، لأنه قال : « ولاتبسطها كل البسط » فناب ذكر العنق ، عن قوله : « كل الغل » ، لأن غل اليد إلى العنق هو أقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليد إليها .

ومن أمثال العرب « إياك وعقيلة الملح » وذلك تمثيل للمرأة الحسناء في منبت السوء ، لأن عقيلة الملح هي اللؤلؤة ، تكون في البحر ، ومن التمثيل قول

ابن الدمينة :

أبيني أفي يمنى يديك جعلتني ؟ فأفرح أم صيرتني في شمالك ؟

فذكر اليمين ، وجعلها مثالا لإكرام المنزلة ، وذكر الشمال ، وجعلها مثالا لهوان المنزلة ، لأن اليمين أشرف منزلة من الشمال ، وأكرم محلا .

وفي القرآن العزيز ما يدل على ذلك ، وهو قوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود . . . الآية ، ولما جاء إلى ذكر الشمال قال تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . . الآية (١) .

٢ — الإرداف :

وهو اسم سماه به قدامة بن جعفر الكاتب (٢) ، قال ابن الأثير «وأكثر علماء هذه الصناعة قد أدخلوا الإرداف في « التمثيل » وفي الفرق بينهما إشكال ودقة (٣) ، وأما « التمثيل » فقد سبق أن تراد الإشارة إلى معنى فتوضع الألفاظ الدالة على معنى آخر فتكون تلك الألفاظ ، وذلك المعنى مثالا للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه ، والعبارة عنه ، كقولنا : « فلان نقي الثوب » أي منزه عن العيوب .

أما « الإرداف » فهو أن تراد الإشارة إلى معنى ، فيترك اللفظ الدال عليه ، ويؤتى بما هو دليل عليه ، ومرادف ، كقولنا : « فلان طويل النجاد »

---

(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير ص ١٥٧ — ١٥٩ .

(٢) نقد الشعر ص ٨٨ .

(٣) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص ١٦٠ .

والمراد به طويل القامة، إلا أنه لم يتلفظ بطول القامة الذى هو الغرض ، ولكن ذكر ما هو دليل على طول القامة . وليس نقاء الثوب دليلا على النزاهة عن العيوب ، وإنما هو تمثيل له .

والإرداف يتفرع إلى خمسة فروع (١) :

١ — فعل المبادهة : كقوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا، أو كذب بالحق لما جاءه » فإن المراد بقوله تعالى . « لما جاءه » أى أنه سفيه الرأى ، يعنى : أنه لم يتوقف فى تكذيبه وقت سماعه ، ولم يفعل ما يفعل المراجيح (٢) العقول المتثبتون فى الأشياء ، فإن من شأنهم إذا ورد عليهم أمر ، أو سمعوا خبراً أن يستعملوا فيه الروية والفكر ، ويتأنوا فى تدبيره ، إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « لما جاءه » أى أنه ضعيف العقل ، عازب الرأى ، فعدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه ، وأردف له ، وهو قوله : « لما جاءه » وذلك آكد وأبلغ . ومن هذا الباب أيضا « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » والكلام على ذلك كالكلام على الذى قبله

٢ — باب « مثل » وذلك دقيق الصفة لطيف المغزى، وقد كانت العرب تأتى « بمثل » فى هذا الموضع توكيداً للكلام ، وتنبيها لأمره، يقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح : « مثلى لا يفعل هذا » : أى أنا لا أفعله ، فنفى ذلك عن مثله ، وهو يريد نفيه عن نفسه ، قصدا للمبالغة ، فسلك به طريق

(١) الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص ١٦٠ — ١٦٥

(٢) المراجيح : جمع المرجاح أى الكثير الاهتزاز، ولعله أخذه من نخل مراجيح ، أى موقرة بكثرة التمر .

الكناية ؛ لأنه إذا نفاه عمن يماثله ، أو يشابهه ، فقد نفاه عنه لا محالة .

وكذلك قولهم أيضا : « مثلك إذا سئل أعطى » أى أنت كذلك ، وهو كثير فى الشعر القديم والمولد ، والكلام المنثور ، وسبب توكيد هذه المواضع بـ « مثل » أنه يراد أن يجعل من جماعة هذه أوصافهم ، تثبيتا للأمر ، وتمكينا له ولو كان فيه وحده اقلق منه موضعه ، ولم ترس فيه قدمه .

ومثل ذلك قولهم فى مدح الإنسان : « أنت من القوم الكرام » أى لك فى هذا الفعل سابقة ، وأنت حقيق به ، ولست دخيلا فيه .

وقد ورد هذا الباب فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ، وهذا كقولهم : « مثلك لا يبخل » فنفى البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدا للمبالغة ، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده ، وهو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه . ونظير ذلك قولك للعربى : « العرب لا تخفر الذمم » ، وهذا أبلغ من قولك : « أنت لا تخفر الذمم » .

وليس فرق بين قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » وبين قوله : « ليس كالله شيء » إلا من الجهة التى نبهنا عليها .

٣ — ما يأتى فى جواب الشرط ، وذلك من ألطف الكنايات وأحسنها ، فمن ذلك قوله تعالى : « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان ، لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث » كأنه قال : إن كنتم منكرين يوم البعث فهذا يوم البعث ، فكنى بقوله : فهذا يوم البعث ، عن بطلان قولهم وكذبهم فيما ادعوه ، وذلك رادف له ، ونظيره قولك : « تنكر حضور زيد فها هو » أى فأنت كاذب ، وهذا من دقائق الكناية .

٤ — الاستثناء من غير موجب ، وذلك من غرائب الكناية ، كقوله تعالى : « ليس لهم طعام إلا من ضريع » والضريع نبت ذو شوك تسميه قريش « الشبرق » في حالة خضرته وطراوته ، فإذا يبس سمته العرب « الضريع » ، والإبل ترعاه طريا ، ولا تقربه يابسا ، والمعنى ليس لهم طعام أصلا ، لأن الضريع ليس بطعام البهائم ، فضلا عن الإنس ، وهذا مثل قولك : « ليس لفلان ظل إلا الشمس » ، تريد نفي الظل عنه ، وذكر الضريع رادف لانتفاء الطعام . وعلى نحو من هذا جاء قول بعضهم :

وتفردوا بالمكرمات فلم يكن لسواهم منها سوى الحرمان

والمراد نفي المكرمات عن سواهم ، لأنه إذا كان الحرمان من المكرمات فمالهم منها شيء ألبته :

٥ — ليس بشيء مما تقدم ، وذلك نحو قوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » والمعنى المراد من هذا الكلام : إنك أخطأت ، وبئسما فعلت ، وقوله « لم أذنت لهم » بيان لما كنى عنه بالعفو ، أي مالك أذنت لهم ، وهلا استأنيت ؟ فذكر العفو دليل على الذنب ، ورادف له ، وإن لم يكن يذكره ، وكذلك جاء قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ، قيل لهم إذا استبنتم العجز عن المعارضة فاتركوا العناد ، فوضع قوله : « فاتقوا النار » موضعه ، لأن اتقاء النار لصيقه ، وضميمه من حيث إنه من نتائجه وروادفه ، لأن من اتقى النار ترك المعاندة ، ونظيره أن يقول الملك لحشمه : « إذا أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي » يريد فأطيعوني ، واتبعوا أمري ، وافعلوا ماينتجه حذر السخط ، وذلك رادف له . ومن هذا الباب قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ، ولكن

قولوا أسلمنا » ألا ترى إلى لطافة هذه الكناية ؟ فإنها أفادت تكذيب دعواهم، ودفع ما انتحلوه . وفائدتها هنا أنه روعى فى تكذيبهم أدب حسن ، حيث لم يصرح بلفظه ، فلم يقل : كذبتم ، لأن فيه نوع استقباح فى الخطاب ، ووضع قوله تعالى : « لم تؤمنوا » الذى هو نفى ما ادعوا بيانه موضعه ، لأن ذلك رادف له . ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : « قال الملأُ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون » فإن الغرض بقولهم : « إنا بما أرسل به مؤمنون » جوابا عن سؤالهم « أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه » ؟ إثبات العلم بإرساله ، وأنه من الأمور الظاهرة المسلمة ، التى لا يدخلها ريب ، ولا يعترضها شك ، لكن عدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه ، ورادف له ، وهو الإيمان به ، أعنى بصالح . وإنما صح منهم بعد ثبوت نبوته عندهم ، والعلم بإرساله إليهم ، فالإيمان به إذن دليل على العلم بأنه نبى مرسل ، وهذا من دقائق الإرداف ولطائفه .

وأمثال ذلك كثيرة كقول الأعراب فى حديث أم زرع فى وصف زوجها : « له إبل قليلات المسارح ، كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هو الك » فإن الظاهر من هذا القول أن إبله تنزل بفنائه ولا تبرح ليقرب عليه نحرها للأضياف فإذا ضرب المزهر للقيان نحرها لضيوفه . لقد اعتادت هذه الحالة ، وألفتها ، وغرض الأعرابية من هذا الكلام أن تصف زوجها بالجود والكرم ، ولكنها لم تذكر ذلك بلفظه الدال عليه ، وإنما أتت بمعان هى أدلة على ذلك من غير تصريح بمرادها ، وكذلك قال بعضهم :

وددت — وما تغنى الوَدادة — أننى ... بما فى ضمير الحاجبية عالم

فإن كان خيرا سرنى وعلمته ... وإن كان شرا لم تلمنى اللوائم

فإن المراد من قوله : « لم تلتني التوائم » أي أهجرها . فأضرب عن ذلك جانبا ، ولم يذكر اللفظ المختص به ، ولكنه ذكر ماهو دليل عليه ، ورادف له.

٣ — المجاورة :

وذلك أن يريد المؤلف ذكر شيء ، فيترك ذكره جانبا إلى ماجاوره ، فيقتصر عليه ، اكتفاء بدلالته على المعنى المقصود ، كقول عنترة :

وشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

أراد بالثياب هنا نفسه ، لأنه وصف المشكوك بالكرم ولا توصف الثياب به فثبت حينئذ أنه أراد ماتشتمل عليه الثياب ، وفي ذلك من الحسن مالا ينكره العارف بهذه الصناعة ، وقال عنترة أيضا :

بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر في الشمال مفدم (١)

الصفراء هنا الخمر ، والذكر للزجاجة حيث هي مجاورة لها ، ومشتملة عليها ، وذهب بعض المفسرين في قوله تعالى : « وثيابك فطهر » إلى أنه أراد بالثياب القلب أو الجسد ، أي قلبك فطهر أو جسدك ، وأمثاله هذا كثيرة .

٤ — الكناية التي ليست تمثيلا ولا إردافا ولا مجاورة :

كقوله تعالى : « أومن ينشأ في الحلية ـ وهو في الخصام غير مبين » فكنى عن النساء بأنهن يتربين في الحلية أي الزينة والنعمة ، وهو (٢) إذا احتاج إلى مجاورة الخصوم كان غير مبين ، أي ليس عنده بيان ، ولا يأتي ببرهان يحاج

---

(١) ذات أسرة : أي ذات طرائق وخطوط . وقوله بأزهر يعني إبريقا من فضة أو رصاص ومفدم مسدود فمه بخرقة ، وقيل مفدم عليه الفدام يصفى به

(٢) الضمير « هو » عائد إلى « من » في قوله تعالى « أو من ينشأ في الحلية » باعتبار لفظها.

به من يخاصمه . وذلك لضعف عقول النساء ، ونقصانهن عن فطرة الرجال ».
ومن هذا الباب قول أبي نواس :

تقول التي من بيتها خف محملي ... عزيز علينا أن نراك تسير

ألا ترى إلى حسن هذه الكناية عن ذكر امرأته بقوله : « التي من بيتها خف محملي » فإنه من ألطفها مذهبا ؟ وكذلك قول نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

الفصل الرابع

الأثر البلاغي للأسلوب الكنائي

الكناية واد من أودية البلاغة ، ومقتل من مقاتل البيان العربي ، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه ، وصفت قريحته ، وطريق جميل من طرق التعبير الفني ، يلجأ إليه الأدباء للتعبير عما يدور في نفوسهم من المعاني ، ويجيش في صدورهم من الخواطر ، ووسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع ولها أثر كبير في تحسين الأسلوب ، وتزيين الفكرة ، فهي في العبارة الأدبية كالدرة اليتيمة في العقد ، وكالخال في خد الحسناء ، وكالزهرة الجميلة في الروضة الفيحاء ، تضفي عليها جمالا أخاذاً ، وسحراً حلالا ، وتكسوها رونقاً وبهاءاً ، فتسترعي الانتباه ، وتسترق الأسماع ، وتبهر الألباب ، وتذوب النفس تأثراً بجمالها ، وتتراقص العواطف تهيأ لعناقها ، وتتحرك الأحاسيس مفتونة بحسنها وبهائها .

وقد بحث البلاغيون قديماً وحديثاً عن سر جمال الكناية وحسنها وعظمتها ، وقد توصلوا في النهاية إلى الكشف عن هذا السر ، وأجملوه فيما يلي : —

١ — الكناية تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفي طيها برهانها . كقول البحتري :

يغضون فضل اللحظ من حيث ما بدا ... لهم عن مهيب في الصدور محبب

فإنه كنى عن إكبار الناس للممدوح ، وهيبتهم إياه بغض الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال ، وتظهر هذه الخاصة جلية في الكنايات عن الصفة والنسبة .

٢ — الكناية تضع لك المعانى فى صور المحسات ، ولا شك أن هذه خاصة الفنون ؛ فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك ، وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحا ملموسا ، وذلك لأن المعانى الكلية مستنتجة من الجزئيات المحسوسة ، ومجردة عنها . وهذه المعانى المجردة لا يدركها العقل واضحة إلا إذا صور لنفسه محسوسات جزئية ، تكون عنده لانتزاع صورة مجردة عنها ، وإلا فلا يتصور من اللفظة الموضوعة لها إلا صورة إجمالية دقيقة جداً ، ثم هو لا يتأثر عند سماعها إلا بساعدة الخيال بصاحب صورتها الجملة ، ويقترن بها أحيانا ، فالكرم والجود والندى الموجودة فى أمثلة الأسلوب الكنائى معان متفاوتة ، وجميعها مجردة عن جزئيات محسوسة ، لا تتضح تلك المعانى لدى لعقل إلا إذا صور تلك الجزئيات المنتزعة فيها .

فقولنا : « محمد كريم » تعبير لا يتصور معه السامع صورة الكرم واضحة فى محمد إلا إذا صوره يعطى محتاجا أوسائلا ، أو تصوره يقرى ضيفا ، وتخيل أن السامع تصور ذلك ، فإنه لا يتصور مقدار الكرم من مجرد تصور إعطاء أو تصور قرى ، لأن صفة الكرم متفاوتة شدة وضعفا ، ولا يمكن معرفة شدتها ، أو ضعفها إلا إذا عرف مقدار العطاء ، والتوسع فى القرى ، ثم الهيئة والحالة التى يكون عليها محمد من ارتياح ومسارعة ، أو قطوب ، وتباطؤ ، وبذلك وضح أن السامع لا يقف أولا يدرك صورة الكرم من الجملة السابقة إلا أن يمثل لنفسه محمداً فى عطاء ، ولا يدرك تلك الصفة وشدتها إلا إذا تصور كثرة العطاء من جهة ارتياح محمد ومسارعته إلى العطاء من جهة أخرى

وهذه الأشياء لا يمكن أن يمثلها السامع لنفسه من الجملة السابقة إلا بتعب وإطالة وقوف أمامها وإمعانه فيها ، بخلاف ما إذا سمع قول الشاعر :

عمرو العلا ذو الندى لا يسابقه　　مر السحاب ولا ريح تجاريه

أجفانه كالجوابى للوفود إذا　　لبوا بمكة ناداهم مناديه

أو أمحلوا خصبوا منها وقد مانت　　قوتا لحاضره منهم وباديه

فإن الشاعر لم يقتصر على وصف عمرو بالندى ، ولو كان منه ذلك ، ما كان لكلامه حلاوة ، ولا بلاغة ، ولكنه زاد على وصفه مسارعته إلى الندى ، وصور أجفانه التي يوضع فيها الطعام أنها كبيرة ، وكبيرة كالجوابى ، بل زاد على ذلك أنه أقام منادين ينادون من حضر مكة إليها ، ثم لم يقف عند ذلك ، بل صور أن الممدوح مداوم على هذا حتى فى أيام المحل وقلة الطعام للحاضر والبادى على كثرتهم ، فتصور العقل من جميع هذه الجزئيات صورة الكرم ، وشدتها فى الموصوف على أتم وضوح ، فحصل عنده بذلك المسرة والاستحسان ، وقام فى نفسه من الإعجاب بعمرو والإجلال له ما يناسب وضوح الصورة التى تجلت عليه من مجموع العبارات فى الأبيات .

فالكناية فى أغلب صورها هذا شأنها ، فإنها تمثل للذهن المعنى المجرد بصورة جزئياته المحسوسة ، فيدرك من ثم المعنى المقصود على أخصر طريق من غير استكراه ولا عسر فقول الشاعر :

أرغ وأزبد يا يزيد　　فما وعيدك لى بضائر

فإنه كنى عن شدة الغضب بجزئيات محسوسة يستدل بها عليه .

وقول الآخر :

تصبوا بقارعة الطريق خيامهم　　يتسابقون إلى قرى الضيفان

ويكاد موقدهم يجود بنفسه　　حب القرى حطبا على النيران

فإن هذه الخصوصات الجزئية يكنى بها عن شدة الكرم فى الممدوحين ، وارتياحهم إليه وقول الآخر :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمى بنانه

فإنه بالغ فى ذكر هذه الخصوصات كناية عن رقة جلده ونعومته ، كأنه يفهم بطريق الفحوى أنه مصان محتجب ، وأنه من أهل الترف والنعيم الذين يلبسون الحرير وما إليه فى الرقة ولين الملمس .

٣ — الكناية تمكنك من أن تشفى غلتك من خصمك من غير أن تجعل له سبيلا عليك ، ودون أن تخدش وجه الأدب أو تخرج عن حدود اللياقة والذوق ، وهذا النوع يسمى بالتعريض . ومثاله قول المتنبي فى قصيدة يمدح بها كافوراً ، ويعرض بسيف الدولة .

رحلت فكم باك بأجفان شادن علىّ ، وكم باك بأجفان ضيغم(١)
وما ربة القرط المليح مكانه بأجزع من رب الحسام المصمم(٢)
فلو كان ما بى من حبيب مقنع عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رميى ومن دون ما اتقى هوى كاسر كفى وقوسى وأسهمى
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

---

(١) الشادن : ولد الغزال ـ والضيغم ، الأسد ، أراد بالباكى بأجفان الشادن المرأة الحسناء ، وبالباكى بأجفان ضيغم الرجل الشجاع . يقول كم من نساء ورجال بكوا على فراق ، وجزعوا لارتحالى

(٢) القرط ، ما يعلق فى شحمة الإذن ، والحسام ، السيف القاطع ، والمصمم ، الذى يصيب المفاصل ويقطعها يقول لم تكن المرأة الحسناء بأجزع على فراقى من الرجل الشجاع .

فإنه كنى عن سيف الدولة ، أولا : بالحبيب المصمم ، ثم وصفه بالغدر الذى يدعى أنه من شيمة النساء ، ثم لامه على مخدعته بالعدوان ، ثم رماه بالجبن ، لأنه يرمى ، ويتقى الرمى بالاستتار خلف غيره ، على أن المتنبى لايجازيه على الشر بمثله ، لأنه لايزال يحمل له بين جوانحه هوى قديما ، يكسر كفه وقوسه وأسهمه ، إذا حاول النضال ، ثم وصفه بأنه سيىء الظن بأصدقائه لأنه سيىء الفعل كثير الأوهام والظنون ، حتى يظن أن الناس جميعا مثله فى سوء الفعل ، وضعف الوفاء ، فانظر كيف نال المتنبى من سيف الدولة هذا النيل كله من غير أن يذكر من اسمه حرفا .

٤ — إن حسن الكناية أو الإرداف يأتى من طريق المبالغة فى الوصف لأن فى التعبير بهذا الردف أو التابع من القوة والحسن ماليس فى اللفظ الموضوع لذلك المعنى . ومن ذلك قول عمر بن أبى ربيعة فى وصف امرأة بطول الجيد :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها ، وإما عبد شمس وهاشم

فلم يذكر طول الجيد بلفظه الخاص به ؛ ولكنه عدل عنه ، وكان فى ذلك من المبالغة والجمال ماليس فى اللفظ الأصلى ، لأن بعد مهوى القرط أدل على طول أكثر ، لأن كل بعيدة مهوى القرط طويلة الجيد ، وليست كل طويلة الجيد بعيدة مهوى القرط ، إذا كان طول الجيد فى عنقها يسيرا .

ولما أراد امرؤ القيس أن يصف ترف محبوبته ، وأن لها من يكفيها قال :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤم الضحى ، لم تنتطق عن تفضل

فقال : « نؤم الضحى » وأن فتيت المسك يبقى فوق فراشها إلى الضحى ، وكذلك سائر البيت ؛ أى هى لاتنتطق لتخدم ، ولكنها فى بيتها متفضلة ؛

ومنه قول ليلى الأخيلية :

ومخرق عنه القميص تخاله   بين البيوت من الحياء سقيما

أرادت وصفه بالجود والكرم ، فجاءت بالأرداف والتوابع لهما ، أما ما يتبع الجود فمدحه بأنه مخرق القميص ، لأن العفاة تجذبه فتخرق قميصه من مواصلة جذبهم إياه ، وأما ما يتبع الكرم فالحياء الشديد الذى كأنه من إماتة نفس هذا الموصوف ، وإزالة الأثر عنه ، حتى يخال سقيماً ، ومنه قول الحكم الخضرى :

قد كان يعجب بعضهن براعتى   حتى سمعن تنحنحى وسعالى

فلم يصف الكبر باللفظ بعينه ، ولكنه أتى بتوابعه ، وهى السعال والتنحنح

٥ — بالكناية يستطاع التعبير عن المعانى غير المستحسنة بألفاظ لاتعافها الأذواق ، ولاتمجها الآذان ، وأمثلة هذا كثيرة فى القرآن الكريم ، الذى لايحوى إلا العبارة المهذبة ، والكلام العذب السائغ . قال ابن فارس : يكنى عن الشيء : فيذكر بغير اسمه تحسينا للفظ ، أو إكراما للمذكور ، وذلك كقوله جل ثناؤه : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » وقالوا إن الجلود فى هذا الموضع كناية عن آراب الإنسان ، وكذلك ، قوله جل ثناؤه : « ولكن لاتواعدوهن سرا » إنه النكاح ، وكذلك « أوجاء أحد منكم من الغائط » ما اطمأن من الأرض ، كل هذا تحسين اللفظ والله جل ثناؤه كريم يكنى ، كما قال فى قصة عيسى وأمه عليهما السلام : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » كناية عما لابد لآكل الطعام منه (١) .

---

(١) كتاب الصاحبى لأحمد بن فارس ص ٢١٩

وحسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح ، أصل من أصول الفصاحة ، وشرط من شروط البلاغة ، ومن ذلك ما كتب أبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة عن المعتضد بالله إلى خمارويه ، وقد أوصى خمارويه بابنته التى تزوجها المعتضد بالله ، فكان مما كتب ابن ثوابة : « أما الوديعة فهى بمنزلة ما انتقل من يمينك إلى شمالك ، عناية بها ، وحياطة لها » . واستحسنت الكناية عن الزوجة بالوديعة حتى صار الكتاب يتعمدونها ، وقال بعضهم : إن تسمية إياها بالوديعة نصف البلاغة .

٦ — إن الأسلوب الكنائى ينزع إلى اللغة الطبيعية ، بتمثيل الأشياء بخصائصها ومن ذلك قول أبى نواس :

ولما شربناها ، ودب دبيبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفى

فإلى أين دب دبيب راح أبى نواس ؟ إلى موطن الأسرار ، وما موطن الأسرار ؟ أليس الدماغ ؟ فقد عمى الشاعر إلى إطلاق لفظ ، وإرادة لازم معناه ، وقد دل فى ذلك على الشىء بأوصافه ، وفى هذه الدلالة نزوع إلى اللغة الطبيعية التى تمثل الأشياء بتمثيل خصائصها ، ومثله قول ودبع البستانى فى تعريب محاسن الطبيعة : « ولا تبعدوا عن جانيات الشهد المتطاير هنا وهنالك تقبل ثغور الأزهار » حيث كنى بجانيات الشهد عن النحل .

وقول الشاعر :

فارتشف ريق العناقيد بيد ما تقاسى من تباريح الكمد

حيث كنى بريق العناقيد عن الخمرة ، وفى ذلك نزوع إلى اللغة الطبيعية .

٧ — إن الكناية قد تكون طريقا من طرق الإيجاز والاختصار كقوله تعالى كناية عن كثير من الأفعال « ولبئس ما كانوا يعملون » وقولهم كناية عن الجامع لكل شيء : « هو سفينة نوح »

٨ — إنك لترى في الكناية من العجب العجاب ، ومن غريب الصنعة ، ومن بديع السحر إذا كانت في باب الصناعات الخسيسة الحقيرة بذكر منافعها كما قيل لحائك :

« ما صناعتك ؟ » قال زينة « الأحياء ، وجهاز الموتى » ، وقال ابن باقلانى — بائع فول »

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره   وإن نزلت يوما فسوف تعود

ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره   فمنهم قيـــــام حوله وقعود

الفصل الخامس

الكناية فى القرآن الكريم

قبل أن أتحدث عن الكناية فى القرآن الكريم ينبغى أن أشير فى إيجاز إلى آراء علماء البيان فى الكناية فى كونها من قبيل الحقيقة أو المجاز، إذ إن بعضهم ممن ينكرون وقوع المجاز فى القرآن ينكرون وجودها بناء على أنها من المجاز.

فأقول مستعينا بالله وحده طالبا منه العون والتوفيق.

لقد اختلف علماء البيان فى الكناية، فمنهم من قال: إنها من باب الحقيقة ومنهم من قال: إنها من باب المجاز، ومنهم من قال: إنها لفظة يتجاذبها جانبا الحقيقة والمجاز، ومنهم من لم يحكم فيها بحقيقة ولا مجاز.

فأما من جعلها من باب الحقيقة فهو الإمام عبد القاهر الجرجانى، فقد قال فى التعريف بها «والمراد (١) بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه (٢) فى الوجود، فيومىء به إليه، ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم: «هو طويل النجاد (٣)» يريدون: طول القامة، و«كثير رماد القدر» يعنون: كثير القرى، وفى المرأة: «نؤم الضحى» والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا فى هذا كله - كما ترى - معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه فى الوجود، وأن يكون إذا كان، ألا ترى أن القامة إذا طالت: طال النجاد؟

---

(١) دلائل الإعجاز الإعجاز ص ٥٢ (٢) الردف بكسر الراء وسكون الدال هو الذى يركب خلف الراكب، وكل شىء تبع شيئا فهو ردفه. (٣) النجاد ككتاب: ما وقع على العاتق من حمائل السيف.

وإذا أكثر القرى : كثر رماد القدر ؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى ؟ .

وإيضاح ذلك أن لكل تركيب من التراكيب التى ساقها عبد القاهر معنيين : أحدهما متبوع وهو المعنى الكنائى المراد كطول القامة ـ مثلا ـ والمتبوع هو المقصود بالإفادة ، ولم يذكر لفظه ، والتابع ـ وإن ذكر لفظه ـ لم يقصد لذاته ، بل ليكون وسيلة ورمزا الى متبوعه ، فالمعنى الكنائى عند عبد القاهر هو المتبوع أو الملزوم ، والمعنى الحقيقى : هو التابع أو اللازم ، ومن هنا كانت الكناية عند عبد القاهر حقيقة إذ إن الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له سواء أكان ما وضع له مقصودا لذاته أم مقصودا لينتقل منه إلى غيره ، والكناية من النوع الثانى ، أى أنها لفظ مستعمل فيما وضع له لينتقل منه إلى غير الموضوع له ، بحيث يكون غير الموضوع له هو : متعلق الإثبات والنفى ، ومرجع الصدق والكذب ، وعلى هذا تفارق المجاز من أوسع الأبواب لأنها حقيقة وكمى .

ورأى عبد القاهر هذا رأى حسن ووجيه لمطابقته للواقع إذ الواقع أن المعنى الحقيقى لازم وتابع فى الوجود للمعنى الكنائى ؛ لأن القامة إذا طالت : طال النجاد ، وإذا كثر القرى : كثر رماد القدر ، وإذا كانت المرأة مترفة ، لها من يكفيها أمرها : ردف ذلك أن تنام الى الضحى وهكذا .

وقد تبع عبد القاهر فى هذا الاتجاه كثير من علماء البيان منهم الفخر الرازى ، وأبو يعقوب السكاكى ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والنويرى .

وأما من جعلها من باب المجاز فهو أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوى فقد قال فى كتابه « الطراز » كاشفاً النقاب عن منزلتها فى البيان العربى : « أعلم أن الكناية واد من أودية البلاغة ، وركن من أركان المجاز » وقد تبعه فى هذا الاتجاه كثير من علماء البيان ، واحتجوا بأن تكون الكناية تعبيراً عن معنى لا يذكر بلفظه الموضوع له ، بل بلفظ يدل عليه ، فيعبر به عن ذلك المعنى، وقالوا : إن المجاز بالكناية ليس من جهة الإفراد ، بل من جهة التركيب كقوله : « فلان نهاره صائم وليله قائم » فإن الصيام والقيام حقيقتان ، والليل والنهار حقيقتان ، وإنما نسبة الصوم إلى النهار والقيام إلى الليل هو المجاز(١)

وأما من قال : إنها لفظة تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز فضياء الدين بن الأثير الجزرى (٢) ومن يقول بقوله . واحتجوا على ذلك بقوله تعالى : « أو لامستم النساء » وقالوا إن ذلك يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكل منهما يصح به المعنى ولهذا ذهب الشافعى ـ رحمه الله ـ إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد للجسد وذهب غيره إلى أن المراد باللمس الجماع ، فقد تجاذب هذه اللفظة جانبا حقيقة ومجاز ، وكذلك قوله تعالى : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة » فالنعجة يجوز أن يكنى بها عن المرأة ، ويجوز استعمالها فى حقيقتها ، وهى الأنثى من النعم (٣) .

وأما من لم يحكم فيها بحقيقة ولا مجاز فالإمام محمد بن سنان الخفاجى ، وأبو هلال العسكرى والقاضى ، ومن يقول بقولهم ، واحتجوا على ذلك بأن الكناية عبارة عن ذكر المعنى القبيح باللفظ الحسن ، وهذا لا يجوز أن يكون

---

(١) جوهر الكنز : لنجم الدين بن الأثير الحلبى المتوفى سنة ٧٣٧ تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ص ١٠١

(٢) فى المثل السائر ، ونقله صاحب الطراز ج١ ص ٣٦٨

(٣) جوهر الكنز ص ١٠٢

حدا ولا رسما ، لأن الحد والرسم لا بد فيهما من اطراد وانعكاس فى الحد . وهذا الحد الذى ذكره لا يطرد ولا ينعكس ، لأنه يقتضى أن كل مالا يكون ذكر المعنى القبيح باللفظ الحسن فلا يكون كناية وليس الأمر كذلك ، فإن الكناية تقع على المعنى الحسن والمعنى القبيح كقولك : « فلان طويل النجاد » تعنى بذلك طول قامته ، فهذا اللفظ حسن كنى به عن معنى حسن ، فينتقض عليهم ذلك الحد . (١) »

وأنا أميل إلى رأى الشيخ عبد القاهر الذى يجعل الكناية من قبيل الحقيقة ، لأنه - كما أشرت قبلا - مطابق للواقع . ومن هذا الرأى أنطلق إلى إلى الحديث عن الكناية فى القرآن الكريم ، فأقول : إن الكناية موجودة فى القرآن الكريم وأنها فيه من قبيل الحقيقة ، وليست من قبيل المجاز .

ولقد حفل القرآن الكريم بضروب شتى منها ، ففيه الإرداف ، ومنه قوله تعالى : « وقضى الأمر » وحقيقة ذلك ، وهلك من قضى الله هلاكه ، ونجا من قضى نجاته ، وعدل عن الحقيقة للدلالة والتنبيه على ذلك بأمر مطاع لا يرد قضاؤه

ومنه قوله تعالى : « فيهن قاصرات الطرف » أى عفيفات ، قد قصرت عفتهن طرفهن فى بعولتهن ، وعدل عن المعنى الخاص الى لفظ الإرداف ؛ لأن كل من عف غض الطرف عن مطموح ، فقد يعف نظر الإنسان الى شىء ، وتشتهيه نفسه ، ويعف عنه مع القدرة عليه ، لأمر آخر ، وقصر طرف المرأة على بعلها ، أو قصر طرفها حياء وخفرا أمر زائد على العفة ، لأن من لا يطمح طرفها لغير بعلها ، أو لا يطمح حياء وخفرا ، فإنها ضرورة تكون عفيفة ، وليست كل عفيفة قاصرة الطرف ، فلذلك عدل عن اللفظ الخاص الى الإرداف .

وفيه الإشارة كقوله تعالى : « وغيض الماء » فإن غيض الماء يشير إلى

---

(١) جوهر الكنز ص ١٠٣

انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ، ومطر السماء ، ولولا ذلك لما غاض الماء ، ومنها أيضاً قوله تعالى : « وفيها ماتشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين » ففيه إشارة إلى كل ما تميل إليه النفس من الشهوات التي لا تنحصر ، وتلذ الأعين من المرئيات التي لا تنضبط ، لنعلم أن هذا اللفظ القليل قد دل على معان لا تنحصر عدا ، ومنها قوله تعالى : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر » فانظر إلى ما أشارت إليه لفظة « الأمر » من ابتداء نبوة موسى — عليه السلام — وخطاب الحق له ، وإعطائه الآيات البينات من إلقاء العصا لتصير ثعباناً ، وإخراج يده بيضاء ، وإرساله إلى فرعون ، وسؤاله شد عضده بأخيه هارون إلى جميع ماجرى في ذلك المقام ... كل ذلك أشارت إليه هذه اللفظة الواحدة .

وفيه الرمز والإيماء كقوله تعالى : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » فقد أشارت كلمة « ألوف » إلى العدد ، فقد روى بعض العلماء أنهم كانوا أربعة آلاف ، وروى من طريق آخر أنهم كانوا ثلاثين ألفاً ، وصحح العلماء الرواية الثانية بقوله تعالى : « ألوف » فجمعها جمع الكثرة ، ولو كانت الرواية الأولى أصح لقال سبحانه « آلاف » ولم يقل « ألوف » ولاشك أن الذي صور هذا المعنى هو اللفظ الذي رمز به إلى العدد .

وفيه التمثيل كقوله تعالى : « واستوت على الجودي » فإن حقيقة ذلك « وجلست على هذا المكان » فعدل عن الحقيقة الى التمثيل لما في الاستواء من الإشعار بجلوس متمكن لازيغ فيه ولا ميل ، ولاحركة معه ولا اضطرابات ، فإن بهذا الجلوس تسكن معه قلوب أهل السفينة لسكونها ، ولاتسكن إلا بهذا الجلوس المنعوت بالاستواء ، وبذلك يحصل تمام الأمن ، وكمال الطمأنينة ، ولا يحصل ذلك من قولنا : جلست ، ولا مايدل على معناه فقط ، فلذلك عدل عن لفظ الحقيقة الى التمثيل ، وما كان ذلك الا لحسن التصوير وجمال التعبير .

وفيه التعريض (١) كقوله تعالى : « قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابرهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » فقول ابرهيم : « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » تعريض بجهلهم ، وضعف عقولهم ، فكأنه يقول لهم : كيف تعبدون من لايجيب إن سئل ، ولاينطق إن كلم ، وتجعلونه شريكا لمن له الخلق والأمر ؟

كذلك توجد فى القرآن الكريم شواهد لأقسام الكناية المصطلح عليها عند علماء البيان وهى : الكناية المطلوب بها صفة ، والكناية المطلوب بها موصوف والكناية المطلوب بها نسبة . فمن الكناية عن الصفة قوله تعالى « إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة » حيث كنى بالتحيز عن الهزيمة ، وقوله تعالى : « وثيابك فطهر » كناية عن عفة النفس وطهارة الذيل .

ومن الكناية عن الموصوف قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » فقد كنى بألواح ودسر » عن السفينة ، لأن مجموع الأمرين مجتمعين وصف مختص بالسفينة ، وقوله تعالى : « كأنهن بيض مكنون » كناية عن حرائر النساء ، فإن العرب كانت من عادتها الكناية عن حرائر النساء بالبيض ، قال امرؤ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

وقوله تعالى : « أو من ينشأ فى الحلية ، وهو فى الخصام غير مبين » فإنه سبحانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن فى الترف والتزين والتشاغل عن النظر فى الأمور ، ودقيق المعانى .

ومن الكناية عن النسبة قوله تعالى : « ليس كمثله شىء » بناء على الراجح

---

(١) ذكرت هذا بناء على أن أكثر علماء البيان يجعلون التعريض نوعا من أنواع الكناية ، وصورة من صورها .

من جعل الكاف أصلية لا زائدة، وحينئذ يكون كناية عن نفي مثله تعالى، إذا لو كان له مثل لكان هو سبحانه : مثل مثله ، والله سبحانه موجود قطعاً، فنفي مثل المثل حينئذ يؤدي إلى نفيه سبحانه وهو باطل .

وحينئذ لا فرق بين قولك : « ليس كمثله شيء » وقولك : « ليس كمثله شيء » إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها ، وهي المبالغة في نفي المماثلة عن ذاته تعالى . . . وذلك هو شأن الكناية دائماً .

السر في عظمة الكناية وجمالها في القرآن الكريم

إنك إذا تأملت الأسلوب الكنائي في القرآن ، ـ وكنت من أرباب الفصاحة والبيان ـ ، أدركت أنه فوق طاقة بني الإنسان ، وأنه فيه من روعة التعبير ، وجمال التصوير ، وألوان الأدب والتهذيب ما لا يستقل به بيان ، ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن ، وأنه ينطوي تحته لطائف وأسرار ، لا يصل إلى مكنونها إلا من منح ذوقاً رقيقاً ، يدرك ما احتجب خلف الأستار من الأسرار ، وأن فيه من السحر الحلال ما يبهر المهرة من صناع الكلام ، ومن هنا تظهر عظمة الأسلوب الكنائي في القرآن ، ويتضح جماله الخلاب ، وحسنه الفتان ، وتأثيره الذي لا يدانيه تأثير . ونستطيع أن نجمل السر في عظمته وجماله فيما يلي :

١ — الكناية في القرآن تمتاز بالإيجاز اللطيف العجيب الذي لا يستطيع محاكاته أرباب الفصاحة والبيان من بني الإنسان . فمن ذلك قولك قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » (١) لقد كنى القرآن الكريم في هذه الآية بكلمة « الحرث » عن « المباشرة الزوجية » وهذا اللفظ فضلا عما فيه من الأدب وثيق

---

(١) البقرة : ٢٢٣

الصلة بالمباشرة الزوجية ، وتنطوى تحته معان كثيرة تحتاج فى التعبير عنها إلى آلاف الكلمات . انظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه ، وصلة الزوج بزوجه فى هذا المجال الخاص ، وبين ذلك النبت الذى يخرجه الحرث ، وذلك النبت الذى تخرجه الزوج ، وما فى كليهما من تكثير وعمران ، وفلاح ، كل هذه الصور والمعانى تنطوى تحت كلمة « الحرث » التى كنى بها القرآن عن المباشرة الزوجية (١) ، فهل هذه الكناية يستطيع أن يحاكيها بنو الإنسان مهما أوتوا من الفصاحة والبيان ؟ إنها حقا لا توجد إلا فى القرآن ولا تصدر إلا عن خالق الإنسان وعلمه البيان .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « تبت يدا أبى (٢) لهب وتب » فهذه كناية عن أنه جهنمى وأن مصيره إلى اللهب . انظر إلى هذه الكناية ، وما فيها من الإيجاز اللطيف العجيب الذى تنحنى لعظمته جباه أساطين البيان ، لقد اختصرت مقدمات لا أهمية لها بالتنبيه على النتيجة الحاسمة التى يتقرر فيها المصير ، فلخصت فى ومضة واحدة هذا المصير الذى يراد تصويره .

٢ — الكناية فى القرآن تمتاز بجمال التعبير ، فهى مؤدبة ، مهذبة وأنها فى هذا الميدان قد حازت قصب السبق ، وتربعت على عرش الجمال ، وعجز عن إدراك شأوها صفوة فرسان البيان بعد أن ذابت نفوسهم تأثراً بما فيها من الروعة والسحر الحلال :

ومن ذلك قوله تعالى : « ولكن لا تواعدوهن سراً »(٣) فقد كنى القرآن الكريم فى هذه الآية عن الجماع بالسر . تأمل هذه الكناية ، ومدى ما فيها من اللطائف والأنوار والأسرار ، إن فى الكناية بالسر عن الجماع من ألوان

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن للمرحوم سيد قطب ص ٧٨ (٢) المسد :١
(٣) البقرة : ٢٣٥

الأدب والتهذيب ، ما يعجز عن وصفه أساطين البيان ، وفيها من جمال التعبير ما يسترق الأسماع ، ويهز العواطف ، ويحرك الأحاسيس والمشاعر . لقد ألبست الجماع الذى يتم فى السر ثوب السر فذهبت بسر الفصاحة والبيان ، أبعد هذا يقال بأن الكناية فى القرآن يستطيع أن يحاكيها فرسان البيان ؟ أبداً والله إنهم من العجز بحيث لا يمكنهم فهم ما تنطوى عليه الكناية فى القرآن من الأسرار (١) .

ومن ذلك قوله تعالى : « والذين هم لفروجهم (٢) حافظون » وقوله تعالى « والحافظين (٣) فروجهم والحافظات » فقد كنى القرآن فى الآيتين (٤) بالفروج عن العفة وطهارة الذيل ، فما تفرج ثياب المؤمنين عن ريبة ، ولا تتكشف دروع المؤمنات عن منكر ، بل المؤمنون والمؤمنات نقية ثيابهم طاهرة أذيالهم عفيفة نفوسهم . وقوله تعالى : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا (٥) » .

فإحصانها فرجها كناية عن طهارة ذيلها وعفتها الكاملة ، وكان النفخ فى جيب درعها كما ورد فى كتب التفسير .

إن فى الكناية بالفروج « فروج القمصان والثياب » عن عفة النفس وطهارة الذيل من روعة التعبير وجمال التصوير ، وألوان الأدب والتهذيب ما لا يستقل به بيان ، ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن .

٣ — الأسلوب الكنائى فى القرآن يمتاز بحسن التصوير ، وقوة التأثير ،

(١) انظر ص ١١٠ من كتابنا « الإعجاز فى نظم القرآن » .
(٢) المؤمنون : ٥ (٣) الأحزاب : ٣٥
(٤) المراد بالفروج فى الآيتين فروج القمصان والثياب على حد قوله تعالى « وثيابك فطهر » كناية عن العفة وطهارة الذيل ، انظر البرهان للزركشى ج٢ ص٣٠٠ ، ومجازات القرآن للشريف الرضى ص٢٥٣ ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٠٢ .
(٥) التحريم : ١٢

فهو يوضح المعانى بالمبالغات الحسنة الساحرة ، فيقرب الفكرة المجردة من الصورة الحسة ، فتستحيل المبالغة فيه بلاغة ، ويصير التهويل فيه تخييلا . فمن ذلك قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوما محسورا (١) » ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق ، فيه تصوير محسوس لهذه الحالة المذمومة فى صورة بغيضة منفرة ؟ فهذه اليد التى غلت إلى العنق ، لاتستطيع أن تمتد ؛ وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذى لاتستطيع يده أن تمد بإنفاق ولاعطية ، والتعبير ببسطها كل البسط ، يصور هذا المبذر الذى لايبقى من ماله على شىء كهذا الذى يبسط يده فلايبقى بها شىء ، وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قويا مؤثرا (٢) .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه (٣) ... »

انظر كيف مثلت الآية الغيبة بأكل لحم الإنسان ، ولكن أى إنسان ؟ إنه أخ ، وإن المغتاب يأكل لحم أخيه ، وأى أخ هذا ؟ إنه الأخ الميت الذى تفسخ لحمه ، وفاحت روائحه ، وكان للدود منه نصيب ، ومن يستطيع أن يقبل على أكل لحم إنسان أخ ميت متفسخ ؟

هذا الاغتياب ذكر لمساوىء الناس ، وتمزيق لأعراضهم ، ونهش لسمعتهم وغض لفضائلهم ، لا فى وجوههم ، ولا بين أيديهم ، وإنما من وراء ظهورهم ، إنه فعل الجبناء الضعفاء الذين لا يظهرون قوتهم إلا فى الخلاء ، وعند فراغ الساحة من الرجال ، وهؤلاء الذين يغتابون الناس مثلهم كمثل الناهشين الذين

---

(١) الإسراء : ٢٩ (٢) من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى ص ٢٢٦

(٣) الحجرات : ١٢

ينتظرون موت الإنسان ، ليكون بلا عقل ولا حس ولا حياة لينهشوا لحمه ، وإن كان نتناً ذلك لأنهم لم يعتادوا الأطايب فى الحياة ، وإنما استساغوا الأقذار والأنتان . ألا تحس بروعة الكناية القرآنية ، وجمال تصويرها ، وحسن أدائها وقوة تأثيرها ؟

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى . « فاتقوا النار التى وقودها (١) الناس والحجارة »

فقد كنى القرآن بهذه الآية عن عدم العناد عند ظهور المعجزة . أى لا تعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة . تأمل هذه الكناية ، ومدى ما فيها من جمال التعبير وروعة التصوير ، وقوة التأثير ، إنها عبرت عن العناد عند ظهور المعجزة بالنار العظيمة ، وهذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفير وقوة التأثير ثم إن هذا التعبير قد أبرز لك هذا المعنى الفكرى المجرد فى صورة حسية ملموسة ، ولم يقف عند هذا الحد من التجسيم والتشخيص ، بل تعداه إلى التصوير والتحويل فحوله إلى نار ملتهبة متأججة متوهجة . أرأيت أعجب من هذا التصوير ، ولا أروع وألذ من هذا التعبير (٢) ؟ إنها الكناية القرآنية تبهرك بجمالها ، وتأسرك بسحر بيانها ، وتعجزك عن محاكاتها .

ومن هذا القبيل الكناية عن الشئون الغيبية بالمفاتح فى قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو (٣) » والكناية عن أزلية الأرزاق والمقدرات بالخزائن فى قوله تعالى : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر (٤) معلوم »

---

(١) البقرة : ٢٤ .
(٢) انظر ص ١٠٩ من كتابنا « الاعجاز فى نظم القرآن »
(٣) الأنعام : ٥٩ (٤) الحجر : ٢١

٤ — الكناية فى القرآن تمتاز بنظمها البديع ، وتأليفها الفريد ، فمعناها لايؤدى بغير لفظها ، ولفظها لايصلح إلا لمعناها ، حتى لتكاد تصعب التفرقة بينهما ، فلا يدرى أيهما التابع ؟ وأيهما المتبوع ؟ وهى من هذه الناحية ، تعد من مظاهر الإعجاز فى القرآن .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : « ما المسيح ابن مريم (١) إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » فقوله : كانا يأكلان الطعام » كناية عن « قضاء الحاجة » تأمل هذه الكناية ، ومافيها من دقة التعبير ، وجمال الصياغة ، وبديع النظم ، ثم حدثنى بربك هل يمكن أن تؤدى هذه الكناية بغير لفظها ؟ وهل لفظها يصلح لغير معناها ؟ أبدا والله لأن الترابط بينهما وثيق ، وإن الانسجام بينهما قوى ، وإن التآلف بينهما محكم وعميق ، فالأكول لابد من صيرورته إلى العذرة .

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى : « أو من (١) ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » كناية عن « النساء » إن هذه الألفاظ القرآنية لاتصلح إلا للكناية بها عن النساء ، وإن النساء لايكنى عنهن فى هذا المقام إلا بهذه الألفاظ فالنساء ينشأن فى الترف والتزين والتشاغل عن النظر فى الأمور ، ودقيق المعانى أرأيت أجمل من هذه الصياغة ، ولا أمتع من هذا التعبير ، ولا أقدس هذا التصوير ؟

ومن هذا القبيل أيضا ، الكناية بالمراودة عن طلب الجماع فى قوله تعالى : « وراودته (٢) التى هو فى بيتها عن نفسه » والكناية عن المعانقة باللباس فى قوله تعالى : « هن لباس لكم (٣) وأنتم لباس لهن » ، والكناية عن البول ونحوه بالغائط فى قوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من الغائط (٤) » والكناية عن الأستاه بالأدبار فى قوله تعالى : « يضربون وجوههم وأدبارهم »

(١) المائدة : ٧٥ (١) الزخرف : ٧٥ (٢) يوسف : ٢٣
(٣) البقرة : ١٨٧ (٤) النساء : ٦

خاتمة

لقد قمت فى هذا البحث بدراسة الكناية فى مؤلفات القدماء والمحدثين من علماء البيان العربى ، ثم كشفت النقاب عن أسرارها البلاغية ، ثم بحثت عنها فى رياض القرآن الكريم ، متتبعا شواهدها ، مزيحا الستار عن بعض محاسنها ومفاتنها ، ثم أمطت اللثام عن أسباب عظمتها وجمالها فى هذا الكتاب العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ثم توصلت فى نهاية المطاف إلى النتائج الآتية : —

١ — عرفت الكناية كصورة بيانية عامة فى النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى على يد أبى عبيدة معمر بن المثنى ، فقد أراد منها ستر المعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصلى .

٢ — ظلت عامة ، ودون تعريف يميزها عن غيرها من الصور البيانية حتى أواخر القرن الثالث الهجرى .

٣ — بدأت فى التميز والاستقلال عن غيرها فى بداية القرن الرابع الهجرى على يد قدامة بن جعفر الكاتب ، فهو أول من وضع لها تعريفا ، يميزها عن غيرها من صور البيان العربى .

٤ — وضحت معانيها ، وتحددت معالمها ، واستقلت عما عداها ، وظهرت محاسنها فى النصف الأخير من القرن الخامس الهجرى على يد الإمام عبد القاهر الجرجانى ، فقد عرفها ، وبين مزيتها على التصريح ، وكشف النقاب عن محاسنها ووضع شروطا لحسنها :

٥ — تميزت تميزاً تاماً ، واستقلت استقلالا كاملا ، ولبست ثوبا قاتما من الفلسفة والمنطق فى بداية القرن السابع الهجرى على يد الإمام أبى يعقوب السكاكى ، فقد عرفها ، وعلل لتسميتها ، وفرق بينها وبين المجاز ، ثم ذكر أقسامها ، وأنواعها بطريقة فلسفية منطقية ، تكد الذهن ، وترهق الفكر ، ولا تتلاءم مع جمال هذه الصورة البيانية ولطافتها .

٦ — لبست ثوبا من السحر والفتنة ، واتسعت دائرة البحث فيها ، فتخطت حدود اللغة العربية إلى غيرها من اللغات الأخرى كالسريانية والفارسية فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى على يد الأديب الكبير ضياء الدين ابن الأثير ، فقد اعتمد فى دراستها على ذوقه وحسه ، فأكثر من شواهدها الأدبية ، وخرجها تخريجا حسنا ، وحللها تحليلا جيدا ، ولم يكتف بدراستها فى اللغة العربية ، كما فعل غيره من العلماء السابقين ، بل تعدى هذا إلى دراستها فى اللغة السريانية والفارسية .

٧ — بدأ البحث عنها فى القرآن الكريم فى أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجرى على يد الأديب المصرى الكبير ابن أبى الإصبع المصرى فقد كشف عن فوائدها فى القرآن بطريقة أدبية فريدة لم يسبق إليها ، وبأسلوب يتلاءم مع طبيعتها ، ويتناسب مع جمالها ولطافتها .

٨ — خلعت رداء حسنها وجمالها ، وذبلت زهرتها ، وانزوى عودها ، ودخلت فى دائرة الفلسفة والمنطق مرة أخرى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى على يد العلوى ، فقد تتبع تعريفاتها السابقة بالنقد والتحليل معتمدا فى ذلك على عقله ، وثقافته المنطقية .

٩ — اتسع البحث عنها في القرآن الكريم في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري على يد الزركشي ، فقد كشف عن أسبابها في القرآن بأسلوب أدبي رائع ، وبطريقة سهلة ميسورة ، لاتكد الذهن ، ولاترهق الفكر ، وقد أكثر من شواهدها القرآنية ، مبينا موضع الكناية في كل شاهد منها .

١٠ — لم تظهر أسرارها البلاغية بوضوح إلا في العصر الحديث ، وبخاصة على يد المرحوم الشيخ على الجارم ، والأستاذ مصطفى أمين ، والدكتور أحمد بدوي ، والدكتور بدوي طبانة

١١ - إن القرآن الكريم قد اشتمل على معظم شواهد التقسيمات الكنائية المصطلح عليها عند المتأخرين من علماء البلاغة .

١٢ — لقد تميزت الكناية في القرآن الكريم بطائفة من الخصائص كانت السر في عظمتها ، والسبب في خلودها .

هذا جهدي في دراسة الأسلوب الكنائي قد سجلته في هذه الصفحات ، فإن أكن قد وفقت ، فذلك الفضل من الله ، وإن كنت قد قصرت في بعض الجوانب أو جانبني الصواب ؛ فأنا بشر والبشر ديدنهم التقصير، وفي طبعهم الخطأ ، والله الكريم أسأل أن يجعل هذه الدراسات خالصة لوجهه الكريم ، وأن يجعلنا من طلاب العلم العاملين . وأن يهيء لنا الأسباب الموصلة إلى تحصيله ، وأن يعيننا على استيعابه والعمل به إنه سميع مجيب وهو حسبي ونعم الوكيل ؟

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الدكتور

محمود السيد شيخون

الأستاذ المساعد في الجامعة الاسلامية

بالمدينة المنورة

فهرس الموضوعات

فهرس المراجع

١ - القرآن الكريم

٢ - أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجانى ط المنار سنة ١٩٤٧ م

٣ - أسس النقد الأدبى - أحمد أحمد بدوى الطبعة الثانية

٤ - الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز - عز الدين بن عبد السلام ط الأستانه سنة ١٣١٣ هـ

٥ - الإعجاز فى نظم القرآن - الدكتور / محمود السيد شيخون ط القاهرة سنة ١٣٩٧ هـ

٦ - الإيضاح - الخطيب القزوينى ط القاهرة سنة ١٩٥٠ م

٧ - البديع - ابن المعتز ط القاهرة سنة ١٩٤٥ م

٨ - بديع القرآن - ابن أبى الإصبع المصرى ط القاهرة سنة ١٩٥٧ م

٩ - البرهان فى علوم القرآن - الزركشى ط القاهرة سنة ١٩٥٥ م

١٠ - البلاغة الواضحة - على الجارم ، ومصطفى أمين ط القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ

١١ - البيان والتبيين - الجاحظ ط القاهرة سنة ١٩٤٨ م

١٢ - تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة ط القاهرة سنة ١٩٥٤ م

١٣ - التبيان فى علوم القرآن - محمد الصابونى ط بيروت سنة ١٩٦٤ م

١٤ - تحرير التحبير - ابن أبى الأصبع المصرى ط القاهرة سنة ١٩٦٤ م

١٥ - التصوير الفنى فى القرآن - المرحوم سيد قطب ط القاهرة سنة ١٩٦٦ م

١٦ - الجامع الكبير - ضياء الدين بن الأثير - ط بغداد سنة ١٩٥٦ م

١٧ ـ جوهر الكنز ـ نجم الدين بن الأثير الحلبي ط القاهرة تحقيق الدكتور زغلول سلام

١٨ ـ جواهر البلاغة ـ أحمد الهاشمي : ط القاهرة سنة ١٩٤٠ م

١٩ ـ خزانة الأدب ـ ابن حجة الحموي : ط القاهرة سنة ١٩٠٤ م

٢٠ ـ دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني : القاهرة سنة ١٣٣١ هـ

٢١ ـ سر الفصاحة ـ ابن سنان الخفاجي : ط القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ

٢٢ ـ الصاحبي ـ ابن فارس : ط القاهرة سنة ١٩١٠ م

٢٣ ـ الصناعتين ـ أبو هلال العسكري : ط القاهرة سنة ١٩٥٢ م

٢٤ ـ الطراز ـ يحيى العلوي ـ ط المقتطف سنة ١٩١٤ م

٢٥ ـ علم البيان ـ الدكتور بدوي طبانة : ط القاهر سنة ١٩٦٢ م

٢٦ ـ علوم البلاغة ـ أحمد المراغي : ط القاهرة سنة ١٩١٧ م

٢٧ ـ العمدة ـ ابن رشيق : ط القاهرة سنة ١٣٠٧ م

٢٨ ـ الكامل ـ المبرد : ط القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

٢٩ ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ ط القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ

٣٠ ـ المثل السائر ـ ابن الأثير ط . القاهرة ١٩٦٢ م .

٣١ ـ مجاز القرآن ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى : ط الخانجي سنه ١٩٥٤ م

٣٢ ـ مختار الصحاح ـ الرازي ـ ط القاهرة سنة ١٩٢٢ م

٣٣ ـ مفتاح العلوم ـ السكاكي ـ ط القاهرة سنة ١٣١٧ هـ

٣٤ ـ من بلاغة القرآن ـ المرحوم الدكتور أحمد بدوي : ط القاهرة سنة ١٩٥٠ م

٣٥ ـ نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر الكاتب : ط الجوائب سنة ١٣٠٢ هـ

٣٦ ـ نهاية الأرب ـ النويري : ط دار الكتب المصرية .

٣٧ ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ـ الرازي : ط القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ

٣٨ ـ الوسيلة الأدبية ـ حسين المرصفي : ط القاهرة سنة ١٢٨٩ هـ

باحثة علم غفرالله لها

ولذويها وأسكنهم فسيح جناته

إنه سميع مجيب ولا حول

ولا قوة إلا بالله